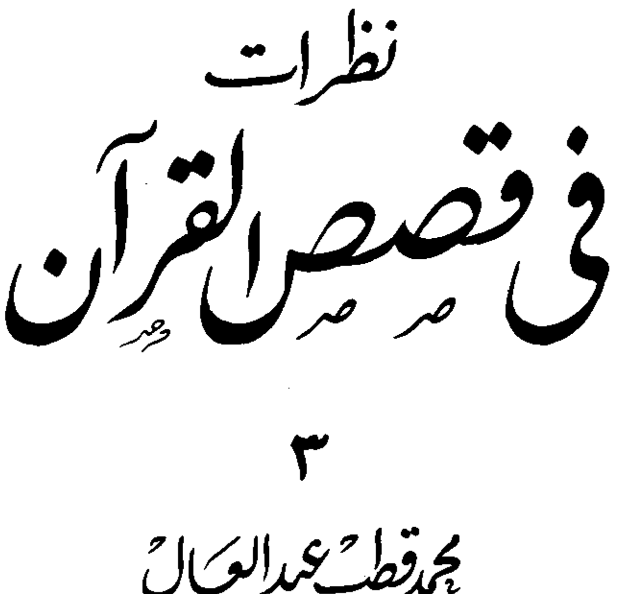


تصدرها رابطة العالم الإسلامي
مكة المكرمة



السنة الحادية عشرة - العدد ١٢٢ - صفر ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م



بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ..﴾

(صدق الله العظيم)



مقدمـــة

القصة في القرآن الكريم على جانب كبير من الأهمية ، فهي قالب تربوي وإعلامي تنفذ من خلاله الدعوة إلى القلوب فتهزها وإلى النفوس فتنفضها نفضاً . ومن ثم فهي تثير العواطف والوجدان ، وتجذب النفس وتهيىء العقل وترسم الطريق وتحدد النهج .

والقصة في القرآن تساق لابراز هدف ديني وتوضيح غرض من أغراض العقيدة ، إذ أنها تنطلق من منطلق ديني بحت . ومع ذلك فقد وفت بمتطلبات الفن القصصي وتضمنت خصائصه وعناصره وأنواعه وتنوع ملامحه .. وجاء ذلك وفق طريقتها الخاصة ، ووفق المنهج القرآني في ايراد القصص .

فالقصة في القرآن تتوزع على السور القرآنية بحيث ترتبط بالغرض الديني . وهذا الارتباط يتناسق مع الموقف السياقي للقصة . ذلك لأنها ليست عملا فنيا مستقلا ، وإنما هي احدى وسائل القرآن الكريم لتقويم العقيدة والدعوة إليها وتثبيتها وترسيخها في النفوس والقلوب . وهي كأداة تعبيرية تندرج تحت القضية الكبرى للتعبير القرآني . فالتعبير القرآني في كل مايورده من صور وقصص ومشاهد ، يؤلف تأليفا ممتزجا امتزاجا عضويا بين الغرض الديني والغرض الفني . فالفن والدين صنوان في أعماق النفس وقرارة الحس .

والقصة كوسيط مؤثر قد حظيت بمكانة عالية في القرآن كما شغلت حيزاً كبيرا فيه ، فلا تكاد تخلو سورة من قصة أو من جزء من قصة أو إشارة إلى قصة أو تسجيل هدف سريع لقصة سريعة وهي في جميع الحالات تراعي فيما تراعيه حسن الملاءمة بين الغرض الديني الذي وردت فيه وبين الصياغة الجمالية المؤثرة .

والدراسة تطمع في أن تقف على جماليات الصياغة القصصية في القرآن الكريم .. فما هي .. إلا نقطة ضوء مقتبسة من مشكاة القرآن ، نقف بها على بعض الكنوز القرآنية .. والله نسأل أن يوفقنا ويتقبل منّا .

الفصـــل الأول

مدخل إلى الدراســـة



مدخل إلى الدراسة

الاسلام هو دين الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها ، ومجيء الاسلام كان ضرورة لاخراج البشر من الوثنية الضالة التي طمست الفطرة وغطت القلوب بغطاء كثيف من الظلمة ، فحدت من تفكير الانسان ، وسدّت منافذ وجدانه ، وأرجفت مشاعره ، وخنقت توقعه ، وشوقه إلى عالم أفضل ، وقيدت عقله بآليَّة الحياة ووثنيتها ، وأراجيفها ، وخرافاتها . فظل الفرد قابعا ، مقيدا ، ينتظر من يطلقه من هذا القيد الآسر ، حتى ينطلق باحثا عن روحه الحبيسة ، منقبا عن وسائل معينة لتكشف له ذاته ، وتعينه على إدراك العوالم التي تتحرك فيها هذه الذات المفردة .

وجاء الاسلام ليعين الانسان على ادراك الحقيقة ، وعلى العودة إلى الفطرة البشرية السليمة إن الاسلام جاء ليأخذ الانسان إلى عالم الكمال والحقيقة ، وينطلق به بعيدا عن رجس الشيطان وآفاقه الوثنية ..

إن الانطلاق الاسلامي ، انطلاق بالفن إلى آفاق عليا لا تدركها إلاّ النفس الصافية المهذبة ، التي تسعى إلى الكمال ، وتعبر عن رحلتها تعبيرا اسلاميا راقيا .

والفن التعبيري ضرورة لإطفاء الظمأ البشري المجنّح إلى عالم الحقيقة ، وعالم الكمال ولكنه يتخذ وسيلته الخاصة للوصول إلى هذه الغاية .. وسيلة تتمثل في الكلمة ، بأبعادها وأنماطها وبما تحمله من دلالات ، وبما تكنُّه من انسياقة تعبيرية أخاذة .

والقرآن الكريم كتاب الاسلام هو الذخيرة الفنية ، التي تنطلق بالمسلم إلى آفاق لا تحدها حدود ، في عوالم النفس ، والكون ،

والحياة ، والتاريخ .. في نسق تعبيري معجز ، يمسك بتلابيب النفس ، ويخوض بها غمار الوجدان والفكر ، فتتفتح الذات المسلمة على عوالم مدهشة بالرؤى والجمال والأخلاق ..

إن النفس المتلقية ، المتذوقة ، لتقع ــ طوعا تحت تأثير هذا البيان المعجز ، الكريم . وإذا كان المسلمون الأوائل احترزوا حين قالوا أدباً ، بل وانصرفوا عنه حين كفاهم القرآن ــ تلك المتعة الآسرة ، فإن العودة إلى القرآن الكريم مرة أخرى ، هي الخطوة الراقية للحصول على فن إسلامي راق .

فالفن الاسلامي في حاجة شديدة لأن يراجع القرآن ، فهو الذخيرة الموحية لهذا الفن ، كما هو الذخيرة الموحية للحياة .. ولأنه كان سببا من أسباب إنصراف المسلمين الأوائل عن التعبير الفني ، لأنه أغناهم ــ مؤقتا ــ عن جمال الأداء بجمال التلقي والانفعال .. ولكن العرب حين عادوا إلى التعبير بعد تلك الفترة المؤقتة ، لم يلجأوا مع الأسف إلى الرصيد الجديد يستمدون منه مشاعرهم وإيحاءاتهم ــ وأغراض تعبيرهم وطرائقه ، وإنما عادوا إلى الجاهلية في مجال التعبير(١) حين عادت الأغراض التعبيرية القديمة من جديد .

وإذا كان القرآن الكريم قد عني بالفن الجميل ، فقد دعا المسلم إلى النظر في مجالات الجمال المختلفة في الكون والحياة . قال تعالى في كتابه الكريم ﴿**ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون**﴾(٢) فالاحساس بالجمال شعور فطري ، لا يحتاج إلى تعلم ، وإنما يحتاج إلى من ينبه ، ويثير كوامنه في الداخل . ولقد دعا القرآن ، المسلم أن يستقرىء مظاهر الجمال في الكون والحياة .

---

(١) منهج الفن الاسلامي . محمد قطب ص٩ دار الشروق .

(٢) سورة النحل آية (٦) .

والانسان ، حتى يتهذب الذوق وتتربى حاسة الادراك الجمالي — وتتأمل النفس مجال الجمال ومكنوناته ، ولا شك ان هذا التأمل والصّقل المستمر ينميان في الفرد المسلم (قوة الملاحظة وقوة الفكر ، وقوة التدبر ، وهي العمد التي يقوم عليها الفن)[٣] .

والاسلام يقدر الفن الجميل ويدعو إليه ، انطلاقا من حق الانسان في التمتع بزينة الدنيا وجمالها دون سرف وانحراف وانحطاط . قال تعالى : **﴿قل من حرَّم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾**[٤]

ومن ثم يرتبط الفن ، في مفهومه الاسلامي — بالأخلاق والتربية ، وتهذيب الروح . ويتسامى بالنفس البشرية إلى آفاق رحبة من المتعة والخير والجمال والأخلاق الفاضلة ، وهي قيم تساهم في تكوين المسلم تكوينا دينيا كاملا ، حتى يصبح القرآن الكريم ، خلقه ، ودستوره ، ومتعته .

والفنان عموما — من الوجهة الاسلامية — لا يضيق بهذا القيد الأخلاقي ، لأن الفن قيد إلتزامي ، وإلا تحول الفن إلى فوضى ودعوة إلى التحرر ، والانحطاط . وتكمن حرية الفنان وقدرته في السيطرة على هذا القيد واحتوائه لصالح فنه ، ولصالح أدواته التي يستخدمها وسائل تعبيرية معينة . وليس هناك موضوعات تمنح أو تمنع عن الفنان المسلم ، فهو حر في الاختيار ، وهو يملك إرادته في انتقاء مايريد التعبير عنه ، حتى عاطفة الحب الجياشة ، وغيرها من العواطف البشرية التي أودعها الله الذات الانسانية ، والتي يحمل الاقتراب منها مظنة الخوف منها والوقوع في موجها الهادر ، والسقوط أمام إغرائها

---

(٣) معلمة الاسلام . أنور الجندي . ص ٣٨٧ .

(٤) سورة الأعراف آية (٣٢) .

وفتنتها ، فإن المنظور الاسلامي ليس بعيدا عن هذه العواطف . وكيف يبتعد القرآن ، وقد حكى لنا في سورة كاملة(٥) نوعا من هذه العواطف التي دارت في قلب امرأة العزيز وسيطرت عليها ، وكادت أن تجرف يوسف الفتي آنذاك لو لا عصمة من الله ..

فليس هناك حجر على الفنان وإنما هناك إطار يتحرك داخله الفنان المسلم ، فهو هنا يعبر عن الحب الانساني ما حلا له أن يعبر ، وكيف لا يعبر عنه ؟ وقيمة الحب هي القيمة البارزة في سواء الشخصية المسلمة . ولكن الاسلام يرفض في حسم وقطع ، أن يتحول التعبير إلى إثارة الغرائز في النفس البشرية . وإنما يسمو بها إلى عالي الفن الخالص المجرد من كل شبهة — وتضليل — إن السمو الأخلاقي هو الفيصل النقدي بين ماهو في الفن وبين ماهو بعيد عن النظرة الاسلامية .

إن الفنون التعبيرية المختلفة ، كالشعر والقصة ، والموسيقى ، والرسم .. وغيرها من الفنون ، لتنطلق وفق المنهاج الاسلامي في الفن ، متحررة من القيود الآلية ، ومعبرة في انطلاقتها عن كافة العواطف البشرية في إطار من الضبط الأخلاقي والتوجيه الديني .

ولقد ورد في القرآن الكريم ، مايدعم النظرة الاسلامية إلى الفن ، حين تحدث عن نعم الله سبحانه وتعالى على سليمان عليه السلام ، حين سخّر له الجن ، فيصنعون له المحاريب وهي القصور الشامخات الجميلة ، والتي تدل على اكتمال في فن العمارة وكذلك التماثيل العجيبة من النحاس والزجاج . قال الحسن : ولم تكن يومئذ محرمة ، وقد حرمت في شريعتنا سدا للذريعة لئلا تعبد من دون الله)(٦) كما

---

(٥) سورة يوسف وترتيبها بين السور (١٢) .

(٦) صفوة التفاسير الجزء الثاني تأليف محمد على الصابوني ص٥٤٨ .

صنع له الجن القصاع الضخمة والتي تشبه الأحواض ، وهي مناظر جمالية تزدان بالمياه أو الأشجار ، أو الأزهار ، وكذلك القدور الكبيرة الثابتة التي لا تتحرك لضخامتها . وكل هذه المجالات الفنية إنما هي من صنع فنان ، ولو كان من الجن ، ولقد أوجب الله ـــ بهذا الصنيع الفني ـــ على آل داود أن يشكروه وأن يحمدوه على نعمه . حيث خصهم الله بالفضل العظيم والفن العظيم أيضاً .

ولم تكن هذه التماثيل لتستخدم إلا فيما صنعت من أجله ، بل وكانت إحدى منن الله على عباده . وذلك يدل على ارتباط الفن بالفطرة ـــ ولما تغيرت الفطرة بما داخلها من وثنية ، جاء التحريم . ولكن يظل الفن في الاسلام هو مايلائم الفطرة ـــ قال تعالى في هذا المجال التذكيري بنعم الله ﴿**يعملون له مايشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور**﴾[٧]

وعلى هذا فإن الفن الاسلامي يتصل اتصالا وثيقا بالقرآن الكريم ، وبالتوحيد أي بجوهر العقيدة التي جاء بها الاسلام .

والفن الاسلامي يقوم على الاعتدال والتوازن ، إنه الفن الوسطي الذي لا يجنح إلى التطرف ، أو إلى الافراط والتفريط . والاعتدال مبدأ اسلامي اخلاقي يترسمه المسلم في كل مجالات حياته المادية والمعنوية . ولم يقم صراع ما في الفكر الاسلامي بين الفن والأخلاق . فلا الفن يستقل عن الأخلاق ـــ ولا علاقة الفن بالأخلاق علاقة خضوع أو قسر أو ايقاف له عن انطلاقته . وليس في تحرك الفن الاسلامي في دائرة الأخلاق مايحول بينه وبين تحقيق هدفه من ابراز حقيقة الشر والخير (فالفن في الاسلام متحرر من المادية الخالصة ،

---

(٧) سورة سبأ آية (١٣) .

جامع بين الروح والفكر بعيدا عن مفهوم الأوثان والتماثيل والأحجار)[8] وهو الفن الذي «يهيىء اللقاء الكامل بين الجمال والحق . فالجمال حقيقة في هذا الكون ، والحق هو ذروة الجمال»[9]

وإذا كان موضوع كتابنا يتناول القصة في القرآن ، وإذا كان فن القول ــ ومنه القصة ــ يعتمد على الكلمة واللفظ ، فإن القرآن الكريم قد وضع للكلمة إطارها وبين مقدارها وغايتها . فالكلمة الطيبة كلمة ذات ثمار يانعة ، وآثار طيبة ، وهي زاد للعقل والروح كما أن الشجرة المثمرة زاد للجسم ومن ثم للعقل ، بحكم تكامل الفرد جسما وروحاً . قال تعالى : **﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربِّها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون﴾**[10]

والآية الكريمة مثل ضربه الله لكلمة الايمان ، فمثل لكلمة الايمان بالشجرة الطيبة (**قال ابن عباس : الكلمة الطيبة (لا إله إلا الله) والشجرة الطيبة (المؤمن)**[11] وبالرغم من التفسير الذى أورده المفسرون ــ غالبا ــ فإن المعنى العام سيظل إطارا عاما تتحرك ضمنه الكلمة ، وفن القول كله . فالكلمة يظل تأثيرها قويا وبناء وفاعلا بالنسبة للفرد وللجماعة ، طالما كانت طيبة ، في الأداء والمغزى والهدف الذي تنطلق منه ، وهو العقيدة ، ومبدأ التوحيد الخالص .

ومن هنا فإن فن القول ، في هذا الاطار ، ينشر القيم ، ويدعم الأخلاق ، ويرفع لواء الحق ، في كل اتجاه ، وكل تعبير ، في أداء

---

(٨) معلمة الاسلام أنور الجندي ص ٣٨٨ .

(٩) منهج الفن الاسلامي ص٦ .

(١٠) سورة ابراهيم الآية ٢٤ ، ٢٥ .

(١١) صفوة التفاسير الجزء الثاني ــ ص٩٦ .

تعبيري يمتزج فيه الحق بالجمال ويصبح للكلمة الخبيثة خطرها وآثارها المدمرة ، فما من خبيث يتلاءم مع الفطرة البشرية . ومايتلاءم مع الفطرة هو مايتماشى مع الفن الاسلامي . والدين الاسلامي يقف محاربا كل الفنون الخبيثة التي تساعد على تحطيم انسانية المسلم ، وتهدم آدميته ، وتتلاعب برغباته ورغائبه الرخيصة ، وتنزله منزلة الحيوان الشرس ولا يعني هذا ان الفن الاسلامي يقف جامدا أمام حركة النفس ورغائبها ، وإنما هو يخترق هذه الحركة ليعلى منها ـــ ويسمو بالنفس عاليا . وهو في ذلك يدعو ـــ أي الفن ـــ إلى إدخال السرور على النفس بوسائل مشروعة ضمن الاطار الأخلاقي إن الكلمة الطيبة نقلت البشرية من جمود الغرائز إلى حيوية الفكر الطليق .. وإن الكلمة في مفهوم الفكر هي جعلت للانسان تاريخا ، فلولاها لما كان هنا مايسمى بالتاريخ البشري ، ولولاها لما ارتفع للحضارة صرح بناء .[١٢] .

ويصبح التسامي بالكلمة عن القول الرخيص من الأهداف الأخلاقية التي يرسيها الفن الاسلامي . وكل فن من فنون القول غيره يقف في قوة وحسم مدافعا عن كل قيمة فاضلة ، وكل مبدأ اخلاقي ، وكل مثل أعلى يصور ليحتذى به ، ويكون أسوة حسنة ـــ لهو من الفن الاسلامي .

والقرآن الكريم ، هو الذخيرة الحية والنسق البياني المعجز ، وهو النموذج الذي يجب ان يحتذى من الفنانين ، حيث قدم نماذج تعبيرية خالصة في الفن القولي ، ومنه القصة موضوع درسنا الأدبي ، ولقد ابرز القرآن الكريم القصة ، شخصية ووصفا ، وحواراً ، ودلالة ، إبرازا واضحا ضمن إطار اعتقادي وديني وتوجيهي ، بحيث تعتبر

---

(١٢) القرآن والفن . حسين على محمد دار آتون القاهرة ص٦ .

نموذجا كاملا لفن القصة القرآنية ، وعلامة على مافي تراثنا من أصالة في هذا الفن ، وإشارة إلى الفنانين أن ينهلوا من هذا المنهل الثر والنبع الذي يفيض نورا وفنا وجمالا .

إن الجانب الفني في العمل الأدبي جانب مهم جدا في نظر الاسلام .. لأن العمل الأدبي بفنيته يكون قادرا على التأثير وتحقيق الهدف . وكل ما في الأمر أننا يجب أن نحقق من خلال العمل الفني الجيد غايات سامية ، وأهدافا نبيلة ، تسهم بشكل ما في تطوير الحياة الانسانية ودفعها خطوة أو خطوات إلى الأمام في سبيل واقع أفضل(١٣)

والفن في الاسلام فن موجه ، مهما تنوعت عناصر الفن واجناسه من شعر ونثر وقصة وخطابة ، وعمارة ، وتصوير ، وخط الخ .. والتوجيه هنا يعني الالتزام بالغرض الاعتقادي والديني وابراز القيم الاسلامية والمباديء الدينية السامية وغرسها في نفوس المسلمين .. وتعميق المعنى الانساني والحياة الانسانية والارتفاع بها عاليا والضّن بها أن تهان أو تحتقر ، والسمو بتلك الحياة الانسانية نحو الكمال والاكتمال عبر طريق مفروش بقيم الدين وتعاليمه وإرشاداته ، وهو الطريق الذي يليق بالانسان المسلم . وبالأديب المسلم .

وعلى هذا فإن الفن ـــ ومنه القصة القرآنية ـــ له وظيفته التي يؤديها ، ورسالته التي يقوم بتوصيلها ، وله هدفه الذي يسعى إلى تحقيقه . فالفن جزء من اهتمامات المسلم ونشاطاته العقلية والوجدانية والابداعية ، ولا بد أن يصدر هذا النشاط الفكري والفني والابداعي عن تعاليم الاسلام ومبادئه السامية . ولا يعني ذلك ابدا

---

(١٣) القصص في الحديث النبوي . محمد بن حسن الزبير . دار اللواء ـــ الرياض ص٣٧١ .

الاهتمام والالتزام بالجانب الموضوعي في الفن على حساب الجانب البنائي في العمل الفني والأدبي ، بل ان العمل الأدبي بموضوعه وشكله يحظى باهتمام بالغ في نظرة الاسلام إلى الفن كما قلنا سابقا .

وليست هناك موضوعات بعينها توضع للأديب يبدع فيها فنه ، فالفنان في الاسلام يكتب ما حلا له أن يكتب ، ينطلق خياله ويسجل قلمه ، ما انفعل به وما ارتآه موضوعا صالحا للكتابة والتعبير . حتى ولو كانت موضوعات شائكة لها حساسيتها الخاصة مثل الموضوعات التي تتناول علاقة المرأة بالرجل . إن هذا الغرض لموضوع بعينه لا يرتضيه الاسلام ، وهو الدين الذي يرسي اسس التحرر من القيود الضالة ، والأثقال المحيطة . الاسلام لا يضع قائمة للأديب يبدع من خلالها ، لأن الاسلام دين يدعو إلى الاختيار حتى تصبح المسؤولية الملقاة على العاتق كاملة . ولكن المطلب الاسلامي — وهو مطلب عقيدي في الأساس — هو أن ينطلق الأديب من منطلق الاسلام ، ويعرض موضوعه من خلال وجهة النظر الاسلامية . وبذلك يصبح للأدب تميز وتفرد يختص به .

فالانسان من وجهة النظر الاسلامية مخلوق — وإن كان مفطورا على النقاء والصفاء — قد كمنت فيه نوازع النفس البشرية ، ففيه ميل إلى الخير وإلى الشر ، العدل والظلم ، الصلاح والفجور ، القوة والضعف ، الحب والكره ... وغير ذلك من الثنائيات المتضادة التي تصنع في داخل الانسان محاور للصراع والقلق والجدل .. وهو كإنسان معرض أن يميل هنا أو هناك بحكم الاستعداد الغريزي لديه . قال تعالى ﴿**ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها**﴾[١٤] .

---

(١٤) سورة الشمس آية ٧ ، ٨ .

وسجل القرآن الكريم ضعف الانسان فقال تعالى ﴿**وخلق الانسان ضعيفاً**﴾[١٥]

ومع هذا الضعف البشري فإن القرآن الكريم يعلى من الجانب الروحي للانسان لأنه الجانب الأقوى والأكثر فعالية . وهو الذي (يمنح الانسان قوة إيجابية وإرادة فاعلة في أن يختار ، وأي الطريقين يختار ، وهو بهذه الايجابية الفاعلة النابعة من جانبه الروحي العلوي ، يملك أن ينتصر على لحظة الضعف ، ثم إن القرآن الكريم وهو يسُجل لحظة الضعف تلك يسميها ضعفا ... وإنها ليست هي الأصل ..)[١٦] .

بهذا المفهوم تصبح نظرة الاسلام إلى الفن كنشاط انساني ، نظرة واقعية تجسد حركة الانسان وهو يصارع الضعف البشري للارتقاء إلى المستوى الأفضل ، وهو يدفع الشر ليؤكد الخير ويرسي قواعده .

إنها نظرة واقعية إلى الفن ــ ومنه الفن القصصي الذي يتناول النشاط الانساني ــ فهي تأخذ الواقع البشري بإطاره الشامل ، وبما فيه من جوانب عليا ، تكشف عنها ، وتوضحها وتبرزها وتصقل معانيها ، وتسلط الأضواء عليها .

والفن الاسلامي يتناول هذه الجوانب السامية بما يجعلها المثل الحي للانسان السوى ، والصورة الرائعة البراقة للمسلم في إطاره العقدي . إن الفن الاسلامي هو الفن الحقيقي الذي يجعل من لحظات الارتفاع والسمو عند الانسان ، البطولة التي تستحق الاظهار وتسليط الأضواء . وللاسلام واقعيته المميزة الخاصة به . فالأمر الواقع لا يفرض ذاته على الاسلام ، فقد يكون هذا الأمر غارقا في الخطأ

---

(١٥) سورة النساء آية ٢٨ .

(١٦) القصص في الحديث النبوي ص٣٧٢ .

والفساد ، فوجوده ليس مزية ، وإنما المزية للصواب والحق ، والواقع الذي ينحرف عن الانسانية لا يمكن أن يكون حقا وصوابا ، ومن ثم فللاسلام منه موقف .

فالواقعية الاسلامية لا ترسم صورة مزورة للحياة ، صورة بيضاء ناصعة البياض لأن ذلك يخالف ماجاء في القرآن .

قال تعالى وهو يصف ضعف الانسان ﴿**وخلق الانسان ضعيفا**﴾[١٧] .

كما بين القرآن الكريم مافطر عليه الانسان من رغبات وغرائز . قال تعالى ﴿**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث**﴾[١٨] إلى غير ذلك من الآيات التي تتناول نقائص الانسان (تصويرا صادقا بارعا عميقا واقعيا إلى أقصى حدود الواقعية .. ولكنها تصورها على وضعها الطبيعي الحقيقي وهي أنها نقائص ينبغي أن يرتفع عليها الانسان ..)[١٩] .

فالواقعية الاسلامية لا تزعم ان الانسان شر كله ، ولاتزعم أنه خير كله وإنما هو خليط بين الاثنين ، والفن الاسلامي مجاله التعبيري أن يرسم تلك الصورة في هذه اللحظة وتلك ، ولكنه لا يسلط الأضواء على حالة الهبوط والتدني فالفن يجب أن يقوم بتصوير الوجدانات البشرية في مختلف حالاتها ومجالاتها دون الاقتصار على حالة دون أخرى .. وهو أمر فني يليق بالواقعية الحقة التي ينبغي أن يمارسها الفن في تصوير الحياة بما تموج به من خير وشر .. فالواقعية

---

(١٧) سورة النساء ٢٨ .

(١٨) آل عمران آية ١٤ .

(١٩) منهج الفن الاسلامي ص٥٦ .

الاسلامية تسير على أساس منهج موحد في النظرة الكاملة لفطرة الانسان وجوهر الحياة وسنن الله في كونه .

والفن الاسلامي (ليس هو الفن الذي يتحدث عن حقائق العقيدة مبلورة في صورة فلسفية ، ولا هو مجموعة من الحكم والمواعظ والارشادات ، وإنما هو شيء أشمل من ذلك وأوسع . إنه التعبير الجميل عن حقائق الوجود من زاوية التصور الاسلامي لهذا الوجود)[٢٠]

ومن هذا الشمول والتكامل تأتي نظرته إلى النفس البشرية ، بحيث تعرض الصورة كاملة بما تتضمن من الماديات والروحانيات في ترابط ممتزج امتزاجا كاملا ، يؤثر بعضها في البعض الآخر ، ولكن مع ابراز القيم الدينية والروحية لأن ابرازها حقيقة كونية متصلة بالفطرة الانسانية ، التي هي مناط الانسان وجوهره الحقيقي .

---

(٢٠) نفسه ص١١٩ .

بين القصة القرآنية والقصة البشرية

نحن نعرف القصة القرآنية من خلال ماجاء في القرآن الكريم من أخبار عن الأمم السابقة ، وعن الأنبياء والمرسلين ، وموقف أممهم منهم . والقرآن الكريم كتاب الله ، ودستور المسلمين إلى الحياة الاسلامية الصحيحة . ذلك أن القرآن الكريم ليس كتاب قصص . وليست قصصه كالروايات أو القصص التي ينشئها الانسان ، حيث تتضمن الحوادث المتخيلة أو المختلقة أو الواقعية .

إنما القصة القرآنية هي القصة التي جاءت بالقرآن ، ونزل بها الوحي الأمين ليخبر بها عن الله سبحانه ، عمّ حدث للأمم السابقة . وعمّ دار بين هذه الأمم والرسل من مواقف وأحداث ، وماجرى بين هذه الأمم وغيرها من الأمم الأخرى ومادار بين الأمة نفسها ، مع ضرب نماذج منها تعطي المثل والعبرة .

وقصص القرآن ـــ وهو قصص لأمور واقعة ـــ يساق للعبر وإعطاء المثلات وبيان مكان الضالين والمكذبين ومنزلة المؤمنين المهتدين إلى الحق . فهو قصص للعبرة من المواقع والأحداث ، وليس لمجرد المتعة ، وقضاء الوقت في قراءة القصة أو الاستماع إليها .

قال تعالى : ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ماكان حديثا يفتري ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيءٍ وهدىً ورحمة لقوم يؤمنون**﴾[١]

ولقد جاءت هذه الآية الكريمة خاتمة لقصة يوسف بأجمعها ، لتلخص الهدف ، وتبين المغزى ، وتثير الذهن إلى ادراك الحقيقة

---

(١) سورة يوسف آية ١١١ .

الثابتة وراء الأحداث المتصارعة ، والمواقف المتشابكة ، والعواطف المشتجرة .

ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتمليكه مصر بعد العبودية وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع ، قادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء شأنه وإظهار دينه[٢]

ومعرفة الظروف التي مرت بمحمد ﷺ توقفنا على العبرة وعلى النمط الفريد الذي جاءت به القصة . ففي تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم ، كان يعاني ﷺ ، من الوحشة والغربة ، والانقطاع في جاهلية قريش ، وكان نزول هذه السورة تخفيفا للآلام ، ذلك أن فترة الدعوة بمكة حفلت بكثير من الأذى والأحزان ، فالقصة حين نزلت كان الهدف هو سوق العبرة وتخفيف الحزن عن الرسول ، فما من شدة إلا ويعقبها فرج ، وما من حزن إلا ويعقبه فرح ، وما من ضيق إلا ويسبقه مخرج .. وجاءت القصة أيضا تحمل التنبأ بما سيحدث على غرار ما حدث . ذلك أنها جاءت تحمل البشر والأنس والراحة والطمأنينة لمن سار على الدرب النبوي السابق ، ومن ثم فهي تبشر بقرب النصر .

ومن أجل أن يصل الهدف إلى صاحبه ، ومن أجل أن تتحقق الغاية العظمى من سياق القصة وتتابعها ، فقد اختلفت عن السور المكية التي حملت طابع الانذار والوعيد فجاءت قصة يوسف ، وهي المكية أيضا (طرية ندية ، في اسلوب ممتع لطيف ، سلس رقيق ، يحمل جو الأنس والرحمة ، والرأفة والحنان ولهذا قال خالد بن معدان «سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة ، وقال

---

(٢) صفوة التفاسير الجزء الثاني ص٧١ .

عطاء : «لا يسمع سورة يوسف محزون إلا استراح إليها»)[٣] ومن أجل ذلك فقد تكررت قصص القرآن الكريم التي تناولت الأنبياء والمرسلين ، فذكرت قصة نوح عدة مرات بالأطناب أو بالايجاز وكذلك قصة ابراهيم وقصة موسى .. وغير ذلك .. من القصص فطبيعة القصة القرآنية ، أنها لم تأت دفعة واحدة باستثناء سورة يوسف ، التي جاءت في السورة كاملة مع تتمة بسيطة وتكرار للمحة منها في سورة أخرى وهي سورة «غافر» الآية (٣٠) .

(قال العلامة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة وبألفاظ متباينة ، على درجات البلاغة والبيان وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر والأعجاز واضح لمن تأمل[٤]

والمعنى الذي يقصده القرطبي ليس الفكرة الواحدة ، لأن تكرر القصة في مواضع كثيرة لا يعني تكرار المعني .. أو تكرار الفكرة ، وإنما التكرار هنا يدور حول الشخصية الواحدة في المواقف المختلفة .

ذلك هو مفهوم القصة القرآنية ، من حيث الهدف ومن حيث توزع أجزاء القصة . على حين اختلف كثير من النقاد حول تعريف بعينه ينطبق على القصة أو على الرواية .

فيرى الناقد تشارلتون أن (القصة ضرب من الخيال النثري له مهمة خاصة به ، وهي أن تقص أعمال الرجل العادي في حياته العادية ، بعد أن تضعها في شبكة من الحوادث كاملة الخطوط ، متتبعة كل

(٣) نفسه الجزء الثاني ص٣٩ .

(٤) صفوة التفاسير الجزء الثاني ص٤٠ .

فعل إلى أدق أجزائه وتفصيلاته وسوابقه ولواحقه ..)[٥]

ولا شك أن التعريف يتضمن هذا التسلسل المتتابع للأحداث والمواقف ، كما لو كانت شبكة متداخلة الخيوط . كما ان كلمة الخيال التي وردت في التعريف تدل على أن الرواية ليست نقلا حرفيا للواقع وإنما هي إنتقاء واختيار له ومن ثم يمتزج الخيال بالحقيقة . والرواية تصف الرجل العادي . ثم (هي حدث تام ترتبط أجزاؤه ، وتتآزر عناصره في سبيل الوصول إلى الخاتمة ، ثم هي بعد ذلك لا تكتفي بوصف الشخصية من خارجها وإنما تتوغل في أعماقها لتصف مكنوناتها وتعبر عن وعيها)[٦]

وإذا كانت هذه هي نظرة بعض النقاد الغربيين إلى تعريف الرواية وهي تعريف يختلف من مدرسة إلى مدرسة ، حسب الاتجاه ، والمعتقد ، فإن الدارسين العرب لا تختلف نظرتهم كثيراً عن النظرة الغربية ، من حيث اكتمال الموضوع وتتبع الحدث ، والالمام بحياة الشخصية الرئيسية ، وطريقة التعبير عنه ، واستكمال أحداثه .

يقول محمود تيمور ــ وهو أديب ودارس ينطلق تعريفه من منطلق النظرة الواقعية الطبيعية كالاتجاه السابق ــ في تعريفه للرواية ، ومحاولة تنظيره لها «أما الرواية ففيها يعالج المؤلف موضوعاً كاملا أو أكثر زاخرا بحياة تامة واحدة أو أكثر . فلا يفرغ القارىء منها إلا وقد ألم بحياة البطل أو الأبطال في مراحلها المختلفة»[٧]

ولعلنا نلاحظ فروقا كثيرة بين القصة القرآنية وبين القصة البشرية

---

(٥) فنون الأدب ، تشارلتون . ص١٢٨ ترجمة د. زكي نجيب محمود . لجنة التأليف والترجمة .

(٦) بناء الرواية ، د. عبدالفتاح عثمان ص١٢ مكتبة الشباب القاهرة .

(٧) دراسات في القصة ــ محمود تيمور ص١٠٠ المطبعة النموذجية .

فإذا كان كلاهما فنا قويا يتخذ من اللغة أداة تعبيرية ، ومن الحكي وسيلة للكشف عن الشخصية ، ومن السرد طريقا إلى التصوير .. فإنهما يختلفان اختلافا جوهريا في الغاية والهدف ، فإذا كان غاية القصة البشرية نقل الواقع بنماذجه ، فإن القصة القرآنية ، تهدف إلى غايات دينية بحتة تحددها الأغراض الدينية التي تدور القصة في فلكها .

كذلك فإن المنطلق مختلف تمام الاختلاف ، فليس هناك في القصة القرآنية تتبع كامل لحياة الشخصية ، وشبكة أحداثها ، وإنما هو اختيار مبثوث عبر السور ، لتوضيح موقف ما ، أو ابراز صراع حول الدين والوثنية ، وغير ذلك . مما سنوضحه فيما بعد .

والقصة القرآنية ــ كما سبق القول ــ قصة تتخذ الصدق الحقيقي مقياسا لها وليس كالقصة البشرية ، تتخذ الخيال وسيلة لاختلاف أحداث تعادل الواقع . والقصة القرآنية أبطالها هم قادة الأمم ورسلها إلى الخير والصلاح ، إنهم الأنبياء والرسل . وأبطال القصة البشرية رجال عاديون ، حيث تصف الرواية الرجل العادي ، فتعبر عن العاديين من البشر الذين نراهم ونتعامل معهم . وليس النبي المصطفى المرسل ، إلى الأمة كفرد عادي ينسلك ضمن ملايين الأفراد العاديين .

والقصة البشرية وهي تعالج أنماط السلوك البشري فإنما (تتمثل علاقة القصة بالحياة في كونها تعبيرا عن أنماط السلوك الانساني ، لها مايقابلها في الحياة . ولكن بينما تظل دوافع بعض السلوك والاستجابة لها خفية في الحياة الواقعية .. نجد أن العمل القصصي يكشف عن الرابطة القوية المتداخلة بين أنماط السلوك ..)[8]

---

(٨) نقد الرواية . د. نبيلة ابراهيم ص٢٧ النادي الأدبي ــ الرياض .

والقصة القرآنية إنما تقدم للبشر ــ القاريء والمستمع ــ النموذج المثالي للسلوك وللأخلاق ، وللقدوة المتعالية عن الدنايا وأخطاء البشر . وهذا السلوك الذي تقدمه القصة القرآنية ليس سلوكا شخصياً ، بل هو سلوك تقتضيه مواجهة الكفر والضلال ، ويوضحه الصراع الهائل بين الرسول وبين الطغاة . ثم هو سلوك مثالي في التصرفات والمعاملات ، وإرشاد الناس بالحكمة والموعظة الحسنة .

والقادة الرسل يمتازون بأنهم مصادر عقيدة ، ومنبع إيمان ، إنهم هم الذين يعلمون الناس الايمان ويمنحونه قلوبهم ويفيضونه على أرواحهم . وهم بهذا النبع الايماني الصرف يسيطرون على قلوب أممهم فيدفعونها إلى أبعد الغايات والأهداف ، فيولدون في نفوسهم القوة الهائلة (فيخلقون من الجماعات مهما تكن درجة قوتها المادية أكبر قوة سيّرت الحوادث ، وبنت التاريخ ، ودفعت بالحضارة قدما)[٩] وهذا هو الفرق بين شخصية القصة القرآنية والشخصية في القصة البشرية .

والقصة القرآنية ليست عملا فنيا مستقلا في موضوعه وطريقة عرضه وإدارة حوادثه كما هو شأن القصة العادية ، وإنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة إلى ابراز الأغراض الدينية التي تكفل للانسان السعادة في الدنيا والآخرة . والقصة الفنية التي يقوم بإبداعها قصاص من البشر ، تترجم عن مشاعر ومعاناة التجربة التي مر بها المؤلف أو نقلها عن تجربة مؤثرة ... والنقد التحليلي قد يكشف لنا عن الخفايا النفسية التي تكمن وراء العمل الفني .

أما القصة القرآنية فلا تخضع لهذا الاتجاه التحليلي النفسي ، إلا من جانب واحد فقط يرتبط بتأثيرها في النفوس ودرجة استجابة القلوب لما تدعو إليه القصة ذلك لأن مصدرها هو الخالق ، طابع النفوس

---

(٩) من هدى القرآن . أمين الخولي ص٣٠ . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

على طبائعها وخصائصها . ماخفي منها وماظهر .

وإذا كنا نستطيع أن نتعرف على شخصية المؤلف من خلال مايكتب من قصص وروايات فإن ذلك لا يتأتى في القصة القرآنية ، ذلك لأن الله جل وعلا .. وهو المنزه عن كل تشبيه .. هو المنشيء والموحى بها . وهل يقوى الفكر البشري المحدود أن يتصور ذلك ، أو يحيط علما به ، والأمر فقط يكون بالتدبر في خلقه وليس في ذاته[١٠] وخلاصة القول في هذه الجزئية انه إذا كانت قيمة العمل الفني في القصة تبرز على قدر اتضاح الفكرة الأساسية فيه ، وعلى قدر الاتصال بحقيقة الانسان في اسلوب جذاب وصيغ تعبيرية جميلة ومؤثرة بقصد الامتاع ، فإن جمال الفن في القصة القرآنية يبدو واضحاً في وحدة الموضوع ، ووحدة الشخصية ومنهج العرض الخاص بالأحداث ، وذلك عبر وسائل غاية في الجمال والتأثير ، مثل المشاهد المصورة الحية ، واسلوب ادارة الحوار بين الشخصيات بما يؤكد القيم الدينية ، ويبرز الحالات النفسية ، فضلا عن القدرة الفذة في حسن اختيار الموقف المناسب الذي يحمل العظة والعبرة .

ويقول أبوهلال العسكري وهو يفرق بين القصة والحديث ، ومنشيء كليهما «ولا يقال لله قاص لأن الوصف بذلك قد صار علما لمن يتخذ القصص صناعة» . وهو إن دلّ على شيء فإنما يدل على عمق النظرة والتحليل عند «العسكري» .

والنظرة القرآنية إلى القصة تختلف تمام الاختلاف عن النظرة البشرية إليها .. ولا شك أن القصة المقروءة في هذا الزمان المعاصر ،

---

(١٠) قال تعالى (**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**) الشورى ، وقال تعالى (**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو النطيف الخبير**) الانعام ١٠٣ .

تغاير تماما ماجاء في التراث العربي القديم ، أو ماجاء في القرآن الكريم وماورد عن الرسول الكريم ، إن القصة الحديثة مبتوتة الجذور بالأصول وهي أقرب إلى القصة الغربية وأسلك في دروبها ومناهجها واساليبها . إنها بمعنى من المعاني فنّ غربي مسيحي خالص ، يختلف اختلافا بيناً عن طابع القصص القرآني ولا شك ان الخلاف مبعثه الدين والقيم والمسلك العام والخاص ، والتباين الشديد في نوعية الشخصية المسلمة والغربية ــ وفي التكوين المزاجي والبنيان الجسماني ، والتكوين الحضاري والثقافي .

ولقد تأثرت القصة العربية الحديثة بما تناولته القصة الغربية من موضوعات وإن كانت تغاير طبائع الأمة العربية . ذلك أنه غلب على مؤلفي القصص الدعوة إلى المادية ، فتكالبت الشخصيات عليها على حساب الأخلاق والقيم ولقد أثر ذلك في الناس القارئين والسامعين على السواء ، وأصبحت أبطال الأعمال القصصية نماذج تحتذى .

وهو نوع من الاستهتار العقلي يبعثه الروائيون في نفوس الجماهير السهلة الانقياد في قالب منمق يؤدي إلى الاستهانة والسقوط ، مع تبرير السقوط والفاحشة والتماس الأعذار للساقطين والمنحلين ، والمستهترين أخلاقيا . وليس ببعيد ان بعض التأخر الذي حاق بالأمة العربية ، وهذا الهبوط الأخلاقي الذي نلمسه في حياتنا ، لهو أثر من آثار هذا التقليد الأعمى الذي وقع فه كتاب العرب .

وليس بخافٍ علينا مايحمله الغرب المسيحي من عداء إلى الاسلام وأهله . ومحاولاته المستميتة لغزو الاسلام عبر تخريب العقول وإفساد القلوب ولقد زين الكتاب للناشئة وللناس أموراً لا يرضاها الدين ولا تتلاءم مع أخلاقه وطبيعته . من ذلك الاتجاه الذي يسود في

الأدب العربي الحديث والذي يستخدم الأساطير الوثنية التي أدانها القرآن .

فالاسطورة اليونانية وكذلك تراث الأساطير الشرقية القديم ، يعتبر بأن من حيث إن طبيعة كل منهما تستمد موضوعها وأسلوبها من الوثنية الخالصة إنها آداب تقترب من الوثنية . فالخلاف في الجوهر والصميم كما هو في الشكل والخصائص وفي الدوافع والغايات من حيث إن دوافعه مختلفة تمام الاختلاف عن تلك الدوافع التي يتولد منها الأدب الأوروبي وابرز هذه المعالم هي الايمان والتوحيد وسلامة النظرة وصدق التوكل على الله الخالق الرازق ، وكلها تعطي للأدب طابعا ملؤه الاشراف والتفاؤل والاقبال على الحياة والرضى بقضاء الله[١١] .

ومثل هذه القصص التي تستقي مادتها ، من النظرة إلى الانسان من حيث كونه حيوانا ماديا لا روح فيه ، أكدت على الاستهتار بالدين والقيم والفضائل . وهي أساسا نتيجة الأفكار المتطرفة والنظريات التي لحقت بالعالم الغربي ، مثل نظرية التطور أو نظرية الانتخاب الطبيعي أو نظريات فرويد في التحليل النفسي .. وهي كلها أمور علمية عكسها الفن الروائي الأوروبي . وقام كتاب العربية الروائيون بتقليد ذلك كله فسجلوا على أنفسهم ، التقليد الأعمى ، والانسياق المزاجي وراء الهرج من القول والفكر والانفصال الحقيقي عن تراث أمتهم وآدابها .

وجاء المذهب الواقعي والطبيعي ليوضح مقولة دارون من أن الانسان حيوان متقدم ، وطرأ الاتجاه التحليلي في القصة والنقد وسبر أغوار الشخصية من منطلق التفسير «الفرويدي» الذي يفسر سلوك

---

(١١) معلمة الاسلام ص٣٩٣ .

الانسان تفسيرا حيوانيا خاضعاً لغرائز فطرية محركها الأساسي هو الجنس .

وانطلق الأدباء ينتجون على ضوئه أدبا جنسيا مكشوفاً ، يخضع فيه الانسان لضعفه وشهوته العارمة ، مركزين الأضواء الكاشفة على لحظة الانسان الهابطة وهو يبحث عن المتاع الدنس . وقد تخصص في هذا النوع من الأدب الجنسي مجموعة من الأدباء ... زاعمين أنهم يصورون الواقع الحقيقي للانسان .(١٢)

إن هذه الاتجاهات والمذاهب ، غير أمينة على الانسان ، اتجاهات وأساليب منحرفة عن حقيقة الانسان وفطرته التي فطره الله عليها ، ومن ثم جعلت هذه المذاهب من الانسان مسخاً بشرياً .

ونظرة القرآن الكريم إلى الانسان نظرة كلية شاملة فهو إنسان فرد مطلق في ذاته بلا حدود ولا قيود ، ثم هو في الوقت نفسه عضو ملتحم في جسد اجتماعي مشدود إليه شدًا محكماً وثيقاً لا يمكن أن ينفصل عنه إلا إذا فسد هذا العضو أو فسد المجتمع الذي كان ملتحماً فيه .(١٣)

وإنها لمعادلة صعبة تلك التي يقع بين طرفيها الانسان ، وهي محور الصراع البشري وهي الموضوع الرائع لأي عمل أدبي للقصة يستطيع أن يتناول مثل هذا الانسان في جانبيه الذاتي ، والاجتماعي .

ذلك أن «التكيف مع الحياة ضرورة اجتماعية ، وهذا ماتصنعه القصة فهي تخلق تكيفا من نوع ما في إطار العمل الفني ، وذلك من خلال تجميع عناصر الحياة المتشعبة في وحدة دلالية واحدة تمثل الحد المقبول على المستوى الجمعي ، عندئذ يبدو السلوك الفردي

---

(١٢) منهج الفن الاسلامي . محمد قطب ص٧٤ دار القلم .

(١٣) الانسان في القرآن الكريم . عبدالكريم الخطيب ص١٠٩ دار الفكر العربي .

واضحاً في إطار الأحداث التاريخية والاجتماعية . أو تختفي العوامل المشوشة التي لا تفسر سلوك الانسان على نحو منطقي في الحياة الواقعية(١٤)

وبالرغم من محاولات ابراز عنصر التكيف في الفن القصصي فإن الاتجاهات الواقعية والطبيعية والنفسية في الأدب ، تأخذ الانسان كفرد عادي في لحظاتي أبعد ماتكون عن التكيف بل هي قريبة من النبذ والاستلاب .. لحظات الضعف والسقوط ، واعتبرت أن هذا الضعف وهذا السقوط إنما هو الأصل في الطبيعة ، أما الثانوي منه فهو الدين والقيم والأخلاق . واعتبرت كثير من الأعمال الأدبية لحظات ضعف الانسان هي البطولة الحقيقة له . ولذلك فكثيرا ما ترد عبارات الخطيئة الأولى ، والزلة الأولى ، وسقوط الانسان منذ البدء .. مشيرين إلى وقوع آدم في المعصية ، دون أن يدركوا الهدف من ذلك كله . والله جل وعلا كما وضح القرآن لم يخلق آدم وزوجه ليبقيا في الجنة ، كالملائكة وإنما جاء الخلق ، لعمارة الكون ، وكانت الزلة سببا في الهبوط إلى الأرض ليتحمل الانسان مسؤوليته عن تعمير الكون واستمرار الحياة . ونقطة الانطلاق تختلف تماما . فالاسلام يخاطب الانسان كما قلنا من جانبيه الذاتي والاجتماعي معا . على حين .. أن الأنظمة السياسية والاجتماعية المصنوعة بأيدي الناس لا ينظر إلى الانسان إلا من جانب واحد ، إما من جانب الجماعة كالشيوعية فلا تراه إلا قطرة ماء ذائبة في نهر الجماعة ، واما من جانب ذاته وحده كما في الرأسمالية ، التي تراه ذا وجود مستقل(١٥) .

ولقد واجه القرآن الكريم الانسان في هذا الجانب الذاتي حتى

---

(١٤) نقد الرواية د. نبيلة ابراهيم ص٤٧ .

(١٥) الانسان في القرآن الكريم ص١١٠ .

لا يقع في مغبته ، فيدعوه إلى النور والهدى . قال تعالى : ﴿**إنَّا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إنَّا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً**﴾(١٦) والقرآن الكريم يحذر الانسان مما في طبيعته من عناصر الظلام التي خالطت عناصر النور ، فحذره من سلطان الغنى ، والغرور والطغيان . وفي قصة قارون نموذج للقصص القرآني الكريم الذي تناول هذا الجانب الذاتي من الانسان ، والذي طغى عليه غروره ، وسلطان القوة فيه . ولقد حمله ذلك الغرور على محادة الله والكفر به .

قال تعالى : ﴿**إنَّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين . وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثر جمعاً ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون . فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم . وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون . فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وماكان من المنتصرين . واصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأنَّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا ان منَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح**

---

(١٦) سورة الانسان آية ٣٢٢ .

الكافرون . تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾[17] .

وقصة قارون تعطي الفارق العظيم بين منطق الايمان ومنطق الطغيان . ولقد وردت قصة قارون ، وهي قصة الطغيان بالمال ، بعد قصة فرعون وهي قصة الطغيان بالجاه والسلطان . وجاء التعقيب بعد قصة قارون لابراز الهدف والمغزى الديني الذي سيقت من أجله القصة وهو أمر خاص بطبيعة القصة القرآنية . وبيَّن التعقيب الالهي ان الدار الآخرة لا يستحقها إلا المتقون الذين يريدون التكبر والطغيان والظلم والعدوان . وتصبح العاقبة محمودة لمن يخشون الله ويراقبونه إن قصة قارون تندرج تحت مايمكن أن نسميه القصة القصيرة ، لأنها وردت في حيز ضيق ، دون اهتمام بالتفصيل أو ايراد التفاصيل ، وهي أيضاً لم تتكرر لأن ايراده في سورة القصص كان كافيا لابراز الغرض الديني . والقصة كاملة في عناصرها . ففيها وصف خارجي لقارون فهو غني ومظاهر الغنى واضحة جلية في تصرفاته وفي مظهره . وابطره الغنى ، فاختلَّ توازنه واصيب بداء نفسي وهو الغرور . ومن ثم لم يتصالح مع نفسه ، ولا مع المجتمع ولم يحدث هذا التكيف الاجتماعي بالمعنى الحديث ، فأحدث بذلك شرخاً في علاقته بالجماعة ، وانقسم الناس إزاءه قسمين ، وهذان القسمان يعكسان مافي النفس من جانبيها المتصارعين : الخير ، والشر . ومن ثم توجه البعض إليه بالنصيحة ، على حين تمنى الآخرون أن يكونوا مثله . وهذا الحوار الذي دار بين قارون وقومه يعكس طبيعته الشخصية ، ويفضح مابداخلها . فجاء الأمر كفعل قولي من باب النصيحة ،

---

(١٧) سورة القصص آيات ٧٦ ـــ ٨٣ .

وكذلك النهي وجاء القول على لسان قارون يشي بالغرور والعظمة ، والكبرياء وهي صفات ممقوتة ، ولأن هذه الصفات مذمومة ، ردَّت عليها الآيات سريعة ، دون أن تترك الحدث البسيط للاسترسال . إنه التدخل المباشر ، في القصة القرآنية . ذلك التدخل الذي يعطي التحفظ على القول ويؤكد المعنى الصحيح ، ويعترض على القبيح ، حتى تتضح العبرة والعظة . وعلى ذلك ذكرت الآية في هذا الموضع ان الله أهلك قبله من هو أشد منه قوة . وجاء الحوار على لسان الفئة الضعيفة بما يفيد التمني ، على حين جاء على لسان العقلاء ثابتاً محايداً بلا انفعال بل في تعقل وبصيرة .

ثم لا تترك الآيات الموقف بلا عقاب بل تذكر الآيات العقاب الذي استحقه قارون . فخسف به وبداره الأرض ، ولم يبق من هذا الموقف كله إلا العظة والعبرة .

تلك شخصية تتضمن العناصر الكاملة ، لشخصية درامية ، ولكنها في القصة القرآنية سردت بما يلائم الغرض الديني ، ولم تتكرر . ولو وقعت هذه الشخصية في يد الكتاب لجعلوا منها صورة للابتذال ، وضمنوها صورا للغنى الفاحش وآثاره في تدهور الأخلاق مع الاشارة إلى مسالك جنسية مبتذلة .

إن الاسلام لا يرضى من الانسان أن يكون ذاتي النزعة ، يعيش لذاته ، ويعمل لحساب تلك الذات غير ناظر إلى ماحوله ولهذا كان من دعوة الاسلام البر والاحسان . والتكافل بين الجماعة ، فيعين القوى الضعيف ، ويساعد الغني الفقير ويعلم العالم الجاهل ، ويهدي المهتدي الضال .

وتلك المعاني كلها ، افتقدها «قارون» وهو المعنى الذي نستطيع أن نخرج به من وراء القصة .

ومن هنا فإننا نستطيع أن نلمح الفارق بين القصة القرآنية وغيرها من القصص البشري . فالقصة القرآنية تأخذ الواقع الأكبر للانسانية بصورته الشاملة وبمافيه من خير وشر . ومافي فيه من مادة وروح وبما ينطوي عليه من جوانب عليا ، وأنها هي الجوانب الأصيلة فيه ، الجديرة بتسليط الأضواء عليها ، وأن تصور وتكبر أيضا على صفحات الأدب وفي مجالات الفن ، وأن يجعل من لحظات الارتفاع والسمو عند الانسان البطولة الجديرة بالابراز وتوجيه الأنوار[١٨] فالتصور الاسلامي ، الذي جاء به القرآن ـــ هو الموجه للقصة القرآنية في مضمونها ، وأساليب تعبيرها ، مع الأخذ في الاعتبار أن هذه القصص إنما هي نصوص دينية معجزة .

---

(١٨) القصص في الحديث النبوي ص٣٨٠ .



قيم فنية وجمالية

١ ــ التصوير الفني

القصة القرآنية إحدى وسائل القرآن الكريم لابراز أغراضه الدينية ذلك أن القرآن كتاب دعوة دينية في المقام الأول ، تتجلى فيه وحدة العقيدة ووحدة الأديان وتماثل وسائل الدعوة منذ البدء حتى الاسلام خاتم الأديان .

... والقرآن ــ وهو يتخذ من القصة وسيلة لابلاغ الدعوة وترسيخها ونشرها ــ يؤلف بين الغرض الديني والغرض الفني . بحيث يتخذ من الجمال الفني والتصوير التعبيري طرائق للتأثير النفسي والوجداني . (فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية[١]) . فالفن والدين كلاهما عميق الغور في النفس والحس . ولا شك أن صفاء النفس مدعاة طبيعية لحسن التلقي لمجالي الدين والفن .

إن القصة القرآنية تتفرد بملمح خاص بها وهو التصوير . فالتصوير يجعل من العمل القصصي أداة فعالة ومؤثرة في جماهير المتلقين للعمل الفني كما ينشىء علاقة إيجابية بين محور العمل وعناصره وأحداثه وبين السامع أو القارىء لما يتضمنه التصوير الجمالي من حركة متدفقة تبعث الحياة فيما يسمع أو يقرأ من القصة . والتصوير الجمالي الحي ، يشيّع جواً من الحياة في ثنايا القصة ، بحيث تنطلق الأخيلة وتتابع الصور على الأذهان (فعملية التصوير البياني تستغل في

---

(١) التصوير الفني في القرآن سيد قطب ص١٤٣ .

الانسان ملكة التصور والتخيل الذهني ، حين يستحضر الصورة التي يسمعها أو يقرأها في كلمات القصة بحيث تصبح مجسدة بكامل أبعادها في ذهنه ومخيلته)[٢] والتصوير هو الأداة المفضلة في الأسلوب القرآني ، حيث ينقل في صورة حسية ملموسة تؤثر في المتلقي ، وتسرع بابراز الغرض .. المعاني الذهنية ، والحالات النفسية والأحداث المتصارعة والمتصادمة والنماذج البشرية في حركة حياتها واحتوائها على أنماط الطبيعة البشرية .

ولقد برز التصوير في مجالات تعبيرية ومتعددة منها :

أولا : تصوير المواقف والمشاهد :

إن التصوير في القصة القرآنية يحيل المواقف البشرية والانسانية إلى مشاهد حية كاملة ـــ حيث تتبدى فيها الحركة البشرية الظاهرة ، والانفعالات المستترة ، وتلك حركتان رئيسيتان ، تمتزجان امتزاجاً كاملا ، بحيث لا نستطيع أن نفصل حركة عن أخرى ، فالتماذج عضوي ، وخيوط النسيج الذي يصنع قماشة الموقف ، يتداخل ويتشابك ، وتلتقي فيه الصورة الحسية المادية ، بتضاريس ملامحها ، بالصورة النفسية ، التي تنداح من النفوس التي تتواجه في الموقف ، ليبدو في النهاية مشهداً حيّاً معروضاً بكل أبعاده أمام عيون المتلقين .

وهذا النوع من التصوير يتكرر بكثرة في سور القرآن الكريم ، سواء جاء عبر القصص أو الأمثال المضروبة أو مشاهد القيامة ، أو غيرها من مجالات التعبير . ويتحول الموقف إلى مشهد ملموس بالحس والخيال .

---

(٢) القصص في الحديث النبوي محمد بن حسن الزير ص١٣٥ .

ولنضرب على ذلك نموذجاً بقصة أصحاب الجنة .. والمراد هنا هو صاحب الجنتين وموقفه من صاحب له فقير . وكلاهما نموذج من الناس ، أحدهما غني تبطره النعمة فينسى قدرة الله وعظمته . أما صاحبه فهو نموذج للمؤمن المعتز بإيمانه والذي يرى أن النعمة ماهي إلا دليل على قوة الله وعظمته .

إن القصة تتناول موقف الغني ، وموقف الفقير تجاه نعم الله وقدرته .

قال تعالى :

﴿واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب ، وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه ، وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلبا . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سوَّاك رجلا . لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا . فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا . أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا . وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول ياليتني لم إشرك بربي أحداً . ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وماكان منتصراً . هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا﴾[٣]

---

(٣) سورة الكهف آيات ٣٢ ـــ ٤٤ .

والآيات الكريمة التي صورت قصة صاحب الجنتين وصاحبه الفقير ، من سورة الكهف . وهي تدور حول محور العقيدة . والقصة مثل واقعي يبين أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة وصفائها .

ثمة كافر ومؤمن . أما الكافر فقد كانت له بساتين من أعناب مثمرة ومكتنزة بعناقيد الكروم ، وفي وسط هذه البساتين تنمو الزروع وتتفجر المياه . وما أروع ذلك المنظر الذي تصوره الآيات ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الأشجار والأعناب وهما محفوفتان بأشجار النخيل وكل جنة أخرجت ثمارها يانعة طيبة المذاق جميلة الشكل .

وصاحب الجنتين ينظر إليهما فيحس بالزهو ويختال غروراً وكبراً ويتعالى على صاحبه الفقير . فهو يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين وقد سيطر عليه الغرور والبطر ونسي الله ، وواجب الشكر على نعمه ، فازدهى قائلا مفتخراً : إنني أغنى منك وأشرف وأكثر انصارا وخدماً . وأنكر أن تبيد الجنتان . كما أنكر البعث وقيام القيامة ، وأبدى قوله متحدياً أن الله في حالة البعث سيعطيه كما أعطاه في الدنيا .

إن هذا الموقف المصور بأبعاده ومناظره وبحواره يبين الغرور الذي يصيب أصحاب الثراء والغنى ، من الكفرة الجاحدين لنعم الله .

أما الصاحب الفقير الذي لا مال له ولا نفر ولا جنة عنده ولا ثمر فهو معتز بعقيدته وإيمانه ، معتز بالله . ومن ثم ينكر على صاحبه الغني بطره وكبره ويذكره بمنشئه المهين من ماء وطين ، ويوجهه إلى وجوب الحمد والشكر لواهب النعم ، المعبود وحده لا شريك له . ولا يتركه قبل أن ينذره العاقبة السيئة لجحوده وكبره . إن المؤمن الفقير يستشعر أنه عزيز أمام المال والجاه ، وأن ماعند الله خير من أعراض الدنيا . ولم يكتف الفقير بتوجيه أنظار الغني إلى خطورة مايفعل ، بل

لامه وقرعه واشتد عليه ، ودعا الله ان تبيد الجنة حتى يتعظ صاحبها . (أكفرت بالذي خلقك !) والاستفهام للتوبيخ وللتقريع .

وحين ينتهي الحوار بينهما تتحقق المفاجأة المثيرة للذهن وللحس معاً تقع المفاجأة تصويرا حسياً دامغاً لكل المفتريات التي افتراها الكافر حيث يتحقق رجاء المؤمن بزوال النعيم عن الكافر .

وينقلنا السياق القرآني إلى مشهد تصويري آخر ، مشهد يتضاد مع المشهد الأول . ينقلنا السياق من البهجة والجمال والازدهار والحياة والتفتح والتدفق إلى مشهد البوار والدمار ، فالثمر كله مدمر كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء والجنة خاوية على عروشها ، وصاحبها يقلب كفيه أسفاً وندماً على ماله الضائع ، وهو نادم على إشراكه بالله وجحوده نعمته ، ويعترف في لحظة الندم بوحدانية الله . وندمه لا ينفعه ولم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك ، فلم تنفعه العشيرة ولا الولد حين اعتز وافتخر بهم وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب . فالله هو الولي الحق الذي ينصر أولياءه .

وهكذا يتحول المشهد من جمال متفتح إلى جنة خاوية يقف وسطها رجل مفجوع ترتسم على ملامحه علامات الحزن والندم وهو يضرب كفاً بكف أسفا على مافات .. وجلال الله ، وعظمة الله ، وقدرة الله .. تتجلى لتظلل الموقف كله وتحدد معالمه ، في حين تتوارى قدرة الانسان[٤]

إن القصة في تصويرها البديع لمشاهد المكان وتحوله ، ولحركة النفس وتغيرها ولموقف الانسان وتباينه ، لتضرب مثلا للقيم الزائلة

---

(٤) في ظلال القرآن المجلد ٤ الجزء ١٥ ص ٢٢٧١

والقيم الثابتة وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بالدنيا والأخرى المعتزة بالله . وهما نموذجان واقعيان يدلان على أنواع من البشر منهم الغني الجاحد والفقير المؤمن . إن في القصة تصحيحا للعقيدة وللفكر وللقيم فالفقير يقول لصاحبه ـــ وهو يحاوره مبينا أن الله هو الذي خلقه ـــ إنه جحد النعمة ، والجحود شرك بالله ولقد أنساه البطر والغنى أنه مخلوق مهين من ماء وطين . ولقد صاغ هذا الحوار لتصحيح عقيدة الكافر الغني في اسلوب استفهامي يراد به التقريع .
﴿**أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا**﴾ .

وجاء استخدام «ثم» في السياق وهي تدل على التراخي لبيان المدى الزمني الطويل الذي تتضمنه كل مرحلة . وكأنما الآية رمز لخلق الانسان ، منذ خلق آدم من تراب ، وتناسلت ذريته من نطف مهينة .

كما يتجلى التصوير الفني واضحاً في قصة نوح ، وخاصة في مشهد الطوفان . والآيات الكريمة تصور هذا المشهد تصويرا معجزاً .

قال تعالى :

﴿**.. حتَّى إذا جاء أمرنا وفَار التنّور قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين واهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بنيّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي وغيض الماء وقضى الأمر واستوت**

على الجودى وقيل بعدا للقوم الظالمين .﴾(٥)

وتتفجر عيون الأرض ماء ، وتفيض ، والسماء تفتح أبوابها ، وينهل المطر غزيراً ، وطغى الماء ، وعلا حتى غطى كل الجبال المرتفعة ، وأمر نوح أن يحمل في السفينة من كل زوجين اثنين ، وسارت السفينة تصارع الأمواج المتلاطمة محروسة من الله في مجراها ومرساها ، والأمواج تفتح للكافرين دوامات ليقبروا فيها ، وليس لهم منجاة من الموت ، فمهما صارعوا الموج خوفاً من الموت فإن الموت غالبهم .

وهذا الهول الذي يحدق بالناس ويحيط بهم ، ينبت هولا جديدا حين يبصر نوح ابنه فيدعوه أن يركب معه ، ، فعواطف الأب التي تحركت في قلبه جعلته يتلهف على ابنه ، ويناديه لعل نداءه يصل إلى مكان الايمان من قلبه فيؤمن الابن ، أو يذعن : إنه يقول في لهفة : يابني هلّم إلى السفينة ولا تكن من القوم الذي غضب الله عليهم ، ولكن الكلمات لم تصل إلى قرارة وجدان الابن العاق ، فيتمادى . ويصرخ متحدياً أنه سيأوى إلى جبل عالٍ مرتفع ولم يستمع إلى نصيحة نوح الذي أشجاه الهم حين بين له أنه لا عاصم اليوم من أمر الله .

وتتلاطم الأمواج وتعلو ، هادرة كالجبال ، وتبتلع الأمواج الابن كما ابتلعت كل شيء ، لقد طوى الماء كل شيء على الأرض ..

إننا هنا أمام مشهد يمور بالحركة والقوة والعنف والهول كالجبال في ثقلها وضغطها وجرمها . وحركة الموج تتراكم وتتصالب حتى لتبدو للرائي أنها جبل حقيقي ، والتشبيه الحسي يخاطب العين ، وهي وسيلة إدراكية مؤثرة تلتقط أبعاد الهول المرئي .

---

(٥) سورة هود آيات ٤٠ ــ ٤٤ .

ويتوازى مع هذا الهول المادي هول نفسي صارخ ، نداء من نوح إلى ابنه ، نداء عالٍ كأعلى مايكون الصوت ، صارخ كأحد مايكون الصراخ ، حتى يصل النداء إلى الابن واضحاً وسط هذا الهول والصخب والتلاطم . ويأتي الحسم بين النداء والإباء وأعطت كلمة «حال» دلالة الحجز والمنع والقطع ، وهي دلالة إشارية إلى عنف الموج وشدة حركته واضطرابه ، وها هي ذي الموجة تصفع كل شيء ولا تأبه بعاطفة مشبوبة ، أو بوجدان ميت ، إنها في شغل عن ذلك ، لقد جاء الأمر أن تغرق الكافرين ، والابن منهم ، فلا مجال للنداء ، ولا مكان للاستجابة . واستوى كل شيء أمام الماء ، الأرض والانسان . فلا الأرض تملك من نفسها شيئاً ، ولا الانسان يقوى على مواجهة النهاية القاسية .

لقد تكافأ العجز في الطبيعة والانسان ، وهذا التكافؤ تأكيد وترسيخ للقدرة الالهية والعظمة الربانية .. فكل شيء بأمره ..

ونأتي إلى مشهد آخر من مشاهد الطوفان ـــ فبعد أن وصلت الحركة إلى الذروة ، آن لها أن تجد قرارها وتستكين .

لقد هدأت العاصفة وبدأ السكون يخيم ويتمشى الهدوء والاستقرار على الأرض من جديد . فالأرض جاءها الأمر أن تغيض فغاضت وبلعت ماءها ، واستعادت جأشها ، والسماء حجبت ماءها واقلعت عن انزاله وغيض الماء وقضى الله الأمر ونفذ القضاء . وغرق الظالمون الكافرون

وجاء الأمر حاسماً نقلته أدوات النداء الدالة على الأمر «يا» والمصحوبة بالفعل الطلبي المطلوب تحقيقه وتنفيذه (ابلعي ، أقلعي) .. ونقل المشهد إلى النهاية في سرعة تطلبت بلاغياً ونسقيا أن يكون البناء للمجهول (غيض) تأكيداً على الفعل نفسه ، ووقوع حدثه .. إن وقوع الحدث عبر أمر طلبي يستدعي تشخيص المادي

بخصائص العاقل الواعي فتكتمل الاستجابة ويتحقق المغزى . وكذلك (قيل) .. لفظ مبني للمجهول يحمل لعنة على الظالمين ، ليست آتية من فرد بعينه في زمن بعينه وفي مكان بعينه ، وإنما حملت الدلالة العامة الشاملة للانسان وللزمان وللمكان .

والقصة تبين مواقف الرسل وهم يواجهون بالاعراض والتكذيب والسخرية والتهديد ، ويظل موقفهم صامداً ثابتاً ، متيقنا من نصر الله ونجاة المؤمنين . ومثل هذه القصص تقوم على حقائق ثابتة وأساسية ، وتتمثل في الوحدانية وعدم الشرك به ، والعبودية له ، وهي رسالة منذ آدم حتى محمد . وفي ذلك تسرية للرسول وإيناس له وتثبيت له أيضاً ..

فالقصة القرآنية تبرز الغرض الديني والاعتقادي من خلال السياق الفني ولكن في نسق تعبيري متوازن يجمع بين الغرض الديني والغرض الفني .

إن المواقف والمشاهد لم تنقل بطريقة إخبارية تزودنا بالمعلومات وكفى ولكنها تنقل بطريقة تصويرية وغير مباشرة يتجلى فيها الفن وروعة الأداء التعبيري ، حيث تنقل هذه المشاهد والمواقف بطريقة يقدم فيها الحدث تقديماً كاملا ، بحيث يعطينا المعلومة الاخبارية والاحساس المصاحب لذلك ، حيث تتضح التجربة الكاملة ، ومن ثم يمنحنا هذا التكامل الشعور الفياض بالتأثر الوجداني والانفعالي .

ثانياً : تصوير المشاعر والانفعالات :

إن التعبير القرآني يتناول القصة بريشة التصوير المبدعة التي يتناول بها جميع المشاهد والمناظر التي يعرفها ، فتستحيل القصة حادثاً يقع

ومشهدا يجري ، لا قصة تروى ولا حدثا قد مضى[٦] .

ويتجلى هذا النوع من التصوير في ابراز الوجدان الانساني بما يكتنفه من عواطف وانفعالات ، وذلك من خلال سلوك الشخصية وموقفها من الأشياء ، وعبر منظورها الخاص تجاه الأحداث ، وهذا النوع التصويري المرتبط بوجدان الشخصية يكشف في قوة تعبير ، وروعة أداء وجمال تصوير ، موقف الشخصية ومسلكها وتصرفها ومايدور بداخلها من مشاعر وانفعالات .. كالحيرة ، والقلق ، والخوف والاضطراب ، والتوجع والتفجع ، والفرح والحزن وغير ذلك من المشاعر التي تتسلط على النفس الانسانية في موقف ما ، وفي ظرف ما .

والأداء التعبيري في القصة القرآنية لا ينقل لنا الموقف المصور المشحون بالعاطفة بطريقة خبرية ليضيف معنى ، أو معلومة ، أو خبراً ، ولكنه ــ وذلك وارد أيضاً ــ ينقل ذلك كله في نسق تصويري موحٍ ومعبر وغير مباشر ، بحيث يتجلى الجانب الفني واضحاً وجلياً ، وبحيث ينقل إلينا الاحساس الفياض بالمشاعر والانفعالات التي تتجلى من هذا الرصد الوجداني للشخصية .

ولا نستطيع أن نفصل المواقف والمشاهد عن العواطف والانفعالات ، ذلك أن الموقف إنما هو مثير انفعالي ــ وبالتالي تصبح العواطف ، استجابة انفعالية ، ومن ثم وجب الارتباط بين المحورين ارتباطا قوياً لا نستطيع فكَّه .. ولكننا في مجال الدراسة نحتال على هذا التوحّد في الموضوع ، حتى نستطيع أن نعيد إليه خيوطه الرئيسية قبل حالة اندماجها .. ومثل هذه المواقف ، وهذه الانفعالات ، تتميز

---

(٦) التصوير الفني في القرآن ص١٩٠ .

بقدر كبير من الصراع النفسي كرد فعل للصراع الخارجي .. وخير مثال لذلك .. قصة مريم ..

قال تعالى :

﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويًّاً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيّا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكيّا . قالت أنّى يكون لي غلام ولم يمسسني بشرٌ ولم أك بغيّا . قال كذلك قال ربُّك هو عليّ هيِّن ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضيا . فحملته فانتبذت به مكاناً قصيًّا . فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ، قالت ياليتني مِتُّ قبل هذا وكنت نسياً منسيًّا . فناداها من تحتها ، ألا تحزني قد جعل ربُّك تحتك سريًّا . وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنيا . فكلي واشربي وقري عينا ، فإمَّا ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً ، فلن أكلِّم اليوم انسيا .

فأتت به قومها تحمله ، قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا . يا أخت هارون ماكان أبوك امرأ سوءٍ وماكانت امك بغيا .

فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيًّا . قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيًّا﴾ .(٧)

الآيات الكريمة تصور مريم في حالاتها الانفعالية بينها وبين نفسها ، وبينها وبين الآخرين . وهذه الانفعالات مصحوبة بردود أفعال شرطية ترتبط بالمواقف التي فوجئت مريم بها ، ففي كل موقف ، هزة ، ومع كل مشهد انفعال مصاحب . وفي كل الحالات تعبير

---

(٧) سورة مريم آيات ١٦ ــ ٣٠ .

مصور لحالة مريم النفسية وتطورها . ها هي ذي الفتاة العذراء الطاهر التي وهبتها أمها ونذرتها لعبادة الله وخدمة معبده في بيت المقدس . لم يعرف أحد عن مريم إلا الطهر والعفة . وهي تعتكف كعادتها تصلي كعادتها ، وتخلو إلى نفسها . مطمئنة إلى وحدتها وتفردها في موقفها النفسي مع ذاتها . وفجأة يظهر أمامها ملك من السماء مكتمل الرجولة سوي ، حتى تأنس له . ولا تنفر منه . وتأخذها الهزة الانفعالية هزة المفاجأة ، فتنتفض انتفاضة عذراء تخشى على نفسها أن يمسها سوء . وحاولت الهروب واستعاذت بالله واستثارت مشاعر التقوى في نفس الرجل فلعله يرجع عن انفعال الشهوة الذي تخشاه مريم .

وما ان تنتهي الهزة الأولى حتى تأتي الهزة النفسية الثانية ، هزة صاحبت إلقاء الخبر الغريب على مسامعها . يريد أن يهب لها غلاماً . إنه لانفعال شديد وقوي . فكيف يكون لها غلام ولم يمسسها بشر ولم تك في يوم بغيا ! وغشيتها سحابة من الحزن وطافت بها موجة من الأسى ، ولكن هول الموقف وشدته لم يعقد لسانها ، بل استجمعت قوتها الشاردة وخرجت من صمتها[8] ، وقالت وبانفعال شديد وبألفاظ مكشوفة ، فكيف يتأتى لها أن تنجب ؟ إن الحياء لا يجدى والصراحة أجدى ، ولكن الملك يخبرها بأن الله يبين لها أن هذا هيّن ، وأن الله جل وعلا يجعل من هذا الحادث آية للناس .

وتأتي الهزة الثالثة لتعود إلى نفسها مرة أخرى فها هي ذي حائرة ، قلقة ، مفكرة فيما سمعته ، وأوجست في نفسها خيفة ، وذهب خيالها بعيداً فيما يمكن أن يقوله الناس . ماذا يقول الناس عن امرأة تحمل وتلد دون بعل !! وقلقت مريم وفزعت بعدما حدث . لقد نفخ

---

(٨) قصص القرآن . محمد أحمد جاد المولى ص٢١٢ ــ المكتبة الأموية .

فيها الروح الأمين وتركها لتواجه هذا الموقف العصيب ، وماكان منها إلا أن انعزلت في مكان قصي وانفردت بنفسها وغلب عليها الخوف وصارت دائمة التفكير شديدة التوجس من ذلك السر الرهيب الذي ينمو في أحشائها . فهي على وشك أن تواجه الناس بالفضيحة .

وتصور الآيات الكريمة موقف مريم لحظة المخاض وهي تواجه الآلام الجسدية بجانب الآلام النفسية . تواجه المخاض الذي «أجاءها» إجاءة إلى جذع النخلة واضطرها اضطرارا إلى الاستناد عليها — وهي وحيدة فريدة ، تعاني حيرة العذراء في أول مخاض ولا علم لها بشيء ولا معين لها في شيء[٩] ونكاد من فرط اضطراب حواسها أن نحس ماتعانيه ونلمس مواقع الآلام النفسية فيها . إنها تتمنى لو كانت نسيا منسيا .

وكما فوجئت مريم في هزتها الأولى بالملك ، ها هي ذي تفاجأ بمفاجأة عجيبة ، ففي حدة الألم وغمرة الهول . تسمع صوتاً .. ويا للهول ! تسمعه من طفل وليد يناديها أن تطمئن قلبا فهي في رعاية الله . فلا تحزني ولا تجيبي أحداً عن سؤال . وها هي ذي مريم ووليدها ، يواجهها قومها بالسخرية والتقريع ، ويسخطون عليها ويتحول السخط إلى تهكم مرير . وذلك التهكم له آثاره المدمرة على نفسية المرأة العادية ، فمابالك بامرأة في مثل مريم وفي مثل موقفها ؟ إن الأمر يكون أكثر ايلاماً . ولكنها تستجمع شتات قوتها ، ولا بد لها أن تفعل وتتحمل من أجل الطفل الصغير وواجهت موقف قومها بالصمت وهم الذين سرحوا في عرضها وتحدثوا في طهرها ولم تنفرج شفتاها ولا بد أن الحياء والخوف اطبقا على لسانها فأشارت إلى الطفل أن

---

(٩) في ظلال القرآن ص٢٣٠٧ — مجلد ٤ جزء ١٦ .

يحدثوه . وصاحب الاشارة تعجب ، وسخرية مريرة منهم . ويعلن الطفل انه عبدالله ، وأنه نبي وأنه مبارك .

انطق الله عيسى ، وتحركت تلك الشفاة الرقيقة . فكان ذلك أقوى دليل على براءتها وأسطع برهان على طهرها ، وكانت آية بينة ترد بها قذف القاذفين وعيب العائبين .

ولقد برز الغرض الديني ــ هدف القصة في القرآن ــ إذ يعلن عيسى انه عبدالله ، وليس إبنه كما يدعي البعض من المسيحية . وليس إلها كما يدعي البعض الآخر ، بل يعلن أنه نبي وأنه ولد ويموت ويبعث .

وهذا المشهد «درامي» من الدرجة الأولى حافل بالصراع بجميع جوانبه ، صراع مع النفس ، وصراع مع الخير ، يعلو الصراع عاطفة الخوف والقلق والاضطراب . ففي جانب الصراع الخارجي تبدو مريم في خوفها من الشخص (الملك) الذي فاجأها . وكذلك مادار بينها وبين قومها وهم يواجهونها بالاتهام والسخرية ، ويتبدى الصراع مع النفس ــ الصراع الداخلي ــ في مراحل قصتها كلها وهزتها النفسية الثلاث .. ولقد امتزج هذان النوعان من الصراع ليعطيا للمشهد قوته ، وليطفو الوجدان عاليا ليصبح هو محور المشهد كله وأساسه . فمما لا شك فيه أن قوة ابراز العواطف والانفعالات هي الغالبة ، وأن هذا اللون الذي يطبعها ويغلب فيها على الألوان الأخرى[١٠]

والتناسق واضح في درجة تطور العواطف والانفعالات .. كما أن القصة ذات إطار دائري مكتمل التكوين حيث بدئت القصة بمفاجأة ، وانتهت بمفاجأة ولكن المفاجأة الأولى ذاتية خاصة بمريم ،

---

(١٠) التصوير الفني ص١٩٩ .

والمفاجأة الثانية عامة بالجماعة وبالناس ، وفيها الدليل الاشاري إلى الغرض الديني ، وهو محور القصص القرآني ووسائله إلى ابراز الدعوة والوحدانية .

كما اننا نلمس في نسيج السياق القرآني ذلك التناسق الرائع بين الكلمات وظلالها وبين المعاني ، ذلك أن تلك الظلال هي التي تحمل دلالات الانفعال ومؤشرات الوجدان . ولقد صاحب ذلك إيقاع أخاذ فيه جمال وطراوة ولقد عكس هذا الايقاع الرخي الندي الساكن المحدود حالة الانفعالات التي تجيش بنفس مريم ، بحيث يتنوع الايقاع والفاصلة بتنوع الجو والموضوع والوجدان . مثل : شرقيا ، سويا ، زكيا ، ثم يحمل الايقاع معنى شعوريا متجددا يلائم هزات النفس ومواقف الآخرين مثل بغيا ، مقضيا ، منسيا ، ثم يحسم الايقاع الصراع الخارجي لصالح مريم ، ولصالح الغرض الديني . نبيا ، حيّا .

وهذا التناسق بين الآيات الخاصة بقصة مريم ، يتمازج مع النسق العام للسورة نفسها (سورة مريم) فالسورة في سياقها معرض للانفعالات والمشاعر القوية ، حيث تبدأ الانفعالات والعواطف في النفس الانسانية من مفتتح السورة حتى ختامها .

* * *

ولنأخذ مشهدا آخر مليئاً بالعاطفة والقلق والخوف ، مشهد مرتبط بالأم أيضاً . إنها أم موسى .

قال تعالى :

﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليَّم ولا تخافي ولا تحزني إنَّا رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسلين . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوًّاً وحزنا ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين . وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك ،

لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون . وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً ان كادت لتبدى به لولا ان ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين . وقالت لأخته قصِّيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون . وحرّمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون . فرددناه إلى أمه كي تقرَّ عينها ولا تحزن ولتعلم ان وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون .﴾(١١)

طغى فرعون واشتد طغيانه على بني اسرائيل لأن عقيدة تخالف عقيدته فهم يدينون بدين أنبيائهم ، ومن ثم انكروا وثنية فرعون . وأحس الطاغية أن ثمة خطراً يأتيه من هذه الطائفة اليهودية التي ازدادت عدداً في مصر منذ أن جاءها يوسف عليه السلام . ولقد هداه تفكيره الفاسد الذي غلبه الشيطان أن يذبح الذكور من اليهود لحظة ولادتهم فيأمن ألا يزداد اليهود وألا يكونوا قوة تناوئه أو تثير القلق في أرضه .

وفي هذا الجو الرهيب الذي يسيطر فيه القلق ويتمشى في أرجائه الخوف ، ولد موسى ، ولد والخطر يحدق به ، ويكاد يتخطفه ، ويأخذ أمه معه .

فها هي ذي أمه الحائرة الخائفة ، تخشى أن يصل إلى وليدها سيف الطاغية ، ويزداد خوفها وهي تشعر أنها عاجزة ، وأنها وحيدة أمام الجبروت الطاغي ، ولكن الله يوحي إليها أن أرضعيه .. وضميه إلى حضنك ، فإن كنت تخشين عليه وهو في حضنك وتحت يدك ونظرك فاتركيه لصاحب القدرة يرعاه ويحميه وماعليك إلا ان تلقى به في اليم ويد القدرة ترعاه وتحميه .

---

(١١) سورة القصص آيات ٧ ـــ ١٣ .

فثمة عواطف مختلفة ، بين الخوف والقلق والاضطراب من جهة ثم الشعور بالاطمئنان المبشر بالراحة والطمأنينة .. وينزل هذا التبشير على القلب الواجف المضطرب برداً وسلاماً ، بل لقد وصلت البشارة إلى ذروة الفرح ، فالوليد الملقي سيعود إليها ، وسيحظى بالرسالة .. لقد كانت البشارة تشويقاً ظل عالقا بقلب الأم فزرع الأمل في القلب وخفف من ضغط الخوف والقلق ..

(ولقد اقتحمت به يد القدرة على فرعون قلب امرأته بعد أن اقتحمت به عليه حصنه ، لقد حمته بالمحبة ، ذلك الستار الرقيق الشفيف .. حمته بالحب الحاني في قلب امرأة وتحدت به قسوة فرعون)[١٢] ولقد صورت الآيات فرحة امرأة فرعون تصويرا حيا ، فها هي تتشوق إلى الولد ، فجاءها طفلا وليداً في صندوق تحرسه العناية ، فتقر نفساً وتفرح به .. لقد غزاها الشوق فأثمرت المحبة ستاراً حمى موسى وصانه من الغدر .

ولكن الأم وقد ألقت بطفلها في اليم طار عقلها من فرط الجزع حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ، حتى كادت ان تكشف أمرها وأمره معا ، لولا ان أدركها أمر الله فألهمها الصبر . وكأنما نسمع في خلوتها مع النفس تلك التساؤلات التي تحمل دلالة العقاب والتأنيب .. كيف طاوعها قلبها أن ترمي بفلذة كبدها في موج لا تعرف مداه وحركته ؟ والتعبير القرآني يصور لنا فؤاد أم موسى تصويراً قويا وموحيا حين يصفه بكلمة «فارغ» إن التفريغ يعني خلوه من الادراك ، والتعقل ، والاقتراب من مرحلة الجنون التي هي دلالة على اللهفة كما هي دلالة على القلق والخوف ..

---

(١٢) في ظلال القرآن مجلد ٥ جزء ٢٠ ص٢٦٧٩ .

ومرة ثانية تدركها العناية الالهية فتربط على قلبها ، ولكن الأم يتحول القلق عندها من مشاعر إلى فعل عملي محسوس ، فها هي تحاول أن ترصد العيون لتأتي بأخبار الطفل . كي تطمئن وتستريح بالا ، فتطلب من أخته أن تقص أثره في حذر وخفية كي تتلمس أخباره .

ويعود الطفل إلى أمه الملهوفة ، فتسعد به وتفرح ، وتهدأ بالا ، وتطمئن قلبا وتأكدت أن وعد الله حق ..

إن هذا المشهد من ميلاد موسى ليبدأ بالبشارة وينتهي بتحقيق البشارة والوعد .. ومابين البداية والنهاية .. تنداح العواطف البشرية موجة إثر موجة بين الخوف والرجاء ، والأمل واليأس .. فيعطى للمشهد حركة وحيوية وعمقاً وتأثيراً . إن القصة ترينا صورة أم مضطربة ، منزعجة ، خائفة ، فهي تريد نجاة الطفل والهول حوله شديد ، ويكاد يبلغ الفزع مداه إلى درجة أن تبدي أمرها .. ولكنها في النهاية ترى المعجزة الكبرى إذ يمتنع عن المراضع ، حتى يعود إلى أمه وتأخذه أخته إلى الأم التي تضطرب بين اليأس والرجاء ، بين الأمل الباسم والحرمان الدائم(١٣) .

إن النص القرآني صور حال الأم في صورة بلغت حد الاعجاز ، واكتمل في هذا المشهد كل جوانب الصورة الابداعية ، المصوغة في قصة قد تعددت شخصياتها ، وتنوعت مشاعرها ، واختلط فيها السرد بالحوار ، والأمر بالاستغاثة ، والتشوق بالأمل ، والوعد بالتحقيق ، والخوف بالاطمئنان ..

إن القصة هذه تبين أنه ليس هناك قوة في الوجود إلا قوة الله ،

---

(١٣) القرآن المعجزة الكبرى ص٢٠١ .

وليس هناك من قيمة تعلو قيمة الايمان . إن يد القدر تضرب الطغيان ضربة مباشرة وتمكن للقلة المؤمنة المستضعفة .

ولا شك أن القصة القرآنية قد أبرزت هذا الغرض الديني الذي يرجع تأثيره إلى القلة المسلمة المستضعفة في مكة ، فقد كانت في حاجة إلى تأكيد هذا المعنى . وكانت الكثرة الظالمة في حاجة إلى التيقن منه .

إن يد القدرة تأخذ بيد المستضعفين فتنقذهم ، وتستنقذ عناصر الخير فيهم وتربيهم وتجعلهم أئمة وتجعلهم الوارثين .

فالقصة في القرآن تخضع في طريقة عرضها للغرض الديني الذي تحمله ، فهي أداة تربية للنفوس ، ووسيلة تقرير لمعانٍ وحقائق ومبادىء .. وهي تتناسق في هذا مع السياق الذي تعرض فيه ، وتتعاون في بناء القلوب وبناء الحقائق الذي تعمر هذه القلوب[١٤]

ولقد تضمنت القصة قدراً هائلا من الصراع الدرامي ، وهو صراع نفس في المقام الأول لأنه يرتبط بداخل الذات ومكامن مشاعرها .. مما يؤدي إلى انطلاق الخيال والانفعالات من سيطرة العقل والبعد عن منطق الواقع والاعتماد على التهويل والمبالغة[١٥] وهو انفعال مصاحب للصراع في مجال العاطفة والوجدان .

ثالثاً : تصوير الشخصية :

التصوير الفني في القصة القرآنية . يتناول الشخصية التي هي أساس الفعل الدرامي في النسيج الفني كله ــ بأبعادها المراد التعبير

---

(١٤) في ظلال القرآن مجلد ٥ جزء ٢٠ ص ٢٦٧٦ .

(١٥) بناء الرواية . د. عبدالفتاح عثمان ص٨٣ .

عنها ، ذلك ان منطق القصة القرآنية يتناول الشخصية في موقف ما .. وهذا الموقف يحدد ــ تبعا لطريقة طرحه ــ المسلك الذي تسلكه الشخصية ..

فالقصة القرآنية تضع أمامنا معالم الشخصية التي تتحرك أثناء القصة .. أو تتمحور حولها أحداث القصة ، و تشارك مع غيرها في بناء القصة .. فتحدد نوعية الشخصية من خلال العرض القصصي ، وتتحدد الأدوار التي تتوزع على شخصيات العمل سواءً كانت الشخصية محورية أو ثانوية .

ومن أهم مميزات البناء في القصة القرآنية ، وفيما يتصل باستخدام الشخصية كعنصر بنائي .. هو وضع الشخصية في مواقف متجددة ، بحيث يتجدد المسار القصصي ويندفع إلى النمو .. وهذا التوجيه البنائي يدفع بالشخصية إلى الحركة الدائمة مايجعلها تتخذ مسلكا ما ، أو تتجه اتجاها ما ، يمليه عليها الموقف .. أحيانا ، وأحيانا أخرى يكون هذا الاتجاه نابعاً من ذاتيتها هي وما تلتزم به في نفسها أساساً من قيم[١٦] واتجاهات ومبادىء ، وأصول راسخة .

وهذا التنوع في المواقف ، وسيلة لرصد المردود النفسي على الشخصية ، وهو يجعل المتلقي متجاوبا مع العرض القصصي الذي يبدو له كما لو كان مشهدا محسوسا ، يرى أشخاصه بعين الخيال ، ويرتبط بهم بانفعال الوجدان .. فتتعدد الانفعالات مابين خوف وفزع ــ أو شفقة وعطف ــ أو توقع وترقب ، أو شوق ويأس ..

ونجاح القصة يقاس بتأثير ما تعرضه على المتلقي .. ذلك التأثير

---

(١٦) القصص في الحديث النبوي ص١٥٤ .

الذي يحدد مدى العلاقة الوثيقة التي تربط القصة بالمتلقي .. وتعطي إشارة دلالية على أن العمل القصصي قد بلغ الدرجة الفنية العالية في التناول والعرض والتأثير والتواصل .

وتهتم القصة القرآنية بالجانب التربوي وهي تعرض لنا شخصية ما في موقف ما . فالقرآن الكريم ليس كتابا في القصة يستمتع به الناس أو يتسلون بما ورد فيه من قصص . وإنما هو كتاب دعوة دينية في المقام الأول . وهو دستور المسلمين ومنهاجهم إلى حياة اسلامية صحيحة المنشأ والمعتقد ..

ولقد وعت القصة القرآنية هذا المفهوم وعيا تاما ، فجاءت الشخصيات طبيعية تدل افعالها وأقوالها على حقيقتها .. بلا اختلاف ، أو توليف ، أو تغيير ، مثلما تلجأ إليه القصة البشرية التي يقوم بإنشائها انسان ما .. إن تصرفات الشخصية الواحدة لا تتناقض مع الحقيقة المترسبة في أعماقها .

والقصص القرآني قصص يتناول بالأخبار والقص والحوار أمما ووقائع وأنبياء يجادلون أممهم ، وأشخاصا نموذجيين يصنعون بمواقفهم أمثلة قصصية يضرب بها المثل في معان كريمة وقيم فاضلة — أو أخلاق فاسدة وقيم منحطة ..

وتحرص القصة القرآنية على تصوير الاشخاص تصويرا واضحا كأننا نراها ونشاهدها . وتصاحبها عبارات تصور درجات انفعالها وأنواعها .. «وكأن المعاني صور واضحة في الشخص المتحدث عنه ، ولو أن مصورا متحركا يصور الشخص في مشهد من مشاهد الذعر ما كان أكثر تصويرا من الألفاظ القرآنية .. والأساليب في تصويرها»(١٧)

---

(١٧) القرآن المعجزة الكبرى ص٢٠٠ .

وسنعرض في هذا المجال قصة سليمان مع بلقيس كنموذج فني واضح الملامح والسمات الخاصة بالذكر والأنثى ، (الرجل والمرأة) . ولكن سليمان ليس رجلا فقط ، وإنما هو ملك ، وبلقيس ليست امرأة فقط وإنما هي ملكة ، كما أن سليمان يتفرد بميزة سامية .. فهو نبي مختار وهو الملمح الرئيسي والمحور الكبير في شخصية سليمان ، ويقابل هذا الملمح المتفرد ملمح يتلقى الأنفعال بانبهار وبضعف انثوي .. وهو ماتتفرد به بلقيس .. هذا الاختلاف البين تتحدد ملامحه حين يتواجهان في موقف ما .. فتنداح كل التكوينات الشخصية السابقة لتلون حركة الفعل في القصة .

قال تعالى :

﴿وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذِّبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنَّه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾[١٨] .

تفقد سليمان عليه السلام جماعة الطير ، وكان الهدهد كما يقول المفسرون يدله على الماء في باطن الأرض[١٩] ولكن الهدهد غائب فأقسم ليعذبنه أو ليذبحنه ، ما لم يأت بحجة واضحة يمهد بها لعذره ويزيل مايخالج النفس في أمره[٢٠]

وهذا المشهد يوضح لنا سمات النبي سليمان عليه السلام ، سمات الشخصية المحورية التي تدور جولها الشخصيات الأخرى .. فسليمان هنا الملك الحازم ، الذي يتفقد أحوال ملكه ، ويتعرف على أحوالها ، ويتأكد من حضور رءوس القوم الكبار .

ومن ثم يصحب الملك انفعال الغضب المصحوب بالتعجب

---

(١٨) سورة النحل ٢٠ ـــ ٢١ .

(١٩) صفوة التفاسير جـ٢ ص٤٠٦ .

(٢٠) قصص القرآن ص١٦٨ .

«مالي لا أرى الهدهد» ويصل الغضب بالملك إلى الذروة ويصاحب غضبه الانفعالي الناتج عن خلل في نظام الملك ، ونظام التواجد في معيته .. يصاحبه أدوات تصعد بالغضب إلى حدّ التهديد .. فنجد لام التوكيد ، المتكررة ، مما يوحي بالاصرار والتوكيد على انزال العقوبة ، ثم تتنوع درجات العقوبة من تعذيب أو ذبح ، وهذا التعذيب الموضح بالمفعول المطلق والمؤكد بنون التوكيد .. ليبين درجة الغضب التي تصاحب الملك إذا ما رأى خللا في بنيان النظام الذي أسسه ويحكمه .

ولكن سليمان ليس ملكا فقط ، إنه نبي أيضاً .. وهي الصيغة المحورية المسيطرة على كل صفات فيه ، ولذلك فسرعان مايرتد الانفعال الحاد إلى تعقل حكيم ، يبتعد بالموقف عن الظلم . فهو لم يسمع حجة الهدد ، فقد يكون له عذره . ومن ثم تبرز سمة النبي العادل . (إنه ليس سلطانا جائراً ، فقد يكون للغائب عذره ، فإن كان فيها ، وإلا فالفرصة لم تفت . وليعذبنه عذاباً شديداً أو لينبذنه)[٢١] ويكون العقاب في هذه الحالة قد وافق غرضه ، لأنه قائم على العدل .

٢ ـــ قال تعالى :

﴿فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين . إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم . وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدَّهم عن السبيل فهم لا يهتدون .

---

(٢١) التصوير الفني ص٢١٠ .

الا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ماتخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾[٢٢]

غاب الهدهد غيبة قصيرة وعاد يخفض رأسه إحساسا بالذنب ، وتقدم إلى سليمان قائلا ، لقد اطلعت على مالم تطلع عليه ، وعرفت مالم تعرفه ولم تصل إلى الاحاطة به أسباب قوتك وملكك وكشفت سراً ندَّعنك أمره[٢٣] فلقد وجدت في أرض سبأ امرأة تملكهم وهم يدينون لها بالطاعة . واعطيت كل شيء يحتاج إليه الملوك ، فضلا عن عرشها العظيم «قال قتادة : كان عرشها من ذهب — قوائمه من جوهر — مكلل باللؤلؤ[٢٤]

إلا ان الشيطان قد استبطنهم وحسَّن إليهم عبادة الشمس من دون الله وهالني الأمر ، إذ كيف لا يسجدون لله الخالق العظيم . الذي يعلم خبيء كل شيء ، ويعلم ماتكن الجوارح — لا إله إلا هو المتفرد بالعظمة والجلال رب العرش العظيم المستحق للعبادة والسجود .

وإلى هنا ويصمت الهدهد ، لقد أدى رسالته ، وأبدى عذره ، وأبان عن تعجبه واستنكاره ، وأفاض في شرح قضيته ، وترك الأمر بعد ذلك في شأن عقابه .. إلى سليمان ..

ولكن الهدهد كان عجبا ، ولقد حكت الآيات عنه ما حكت بما يدل على شخصية متميزة ومتفردة بين الطيور . فهو لم يكن هدهدا كغيره من بني جنسه وإنما كان ممثلهم لدى سليمان ، وإلا مالفت نظر سليمان إلى غيابه .. إذ لا يعقل أن يكون الهدهد أحد اسراب الطيور من جنسه ، ويشغل سليمان نفسه به .. إنه هدهد مميز

---

(٢٢) سورة النمل ٢٢ — ٢٦ .

(٢٣) قصص الأنبياء ص١٦٩ ابن كثير .

(٢٤) صفوة التفاسير ص٤٠٧ .

وهدهد يعطي الدرس لسليمان ، كما أعطى العبد الصالح الدرس لموسى . حتى تظل القاعدة الراسخة (فوق كل ذي علم عليم) .. شعاراً لا ينطفيء معناه ولا يلتوي .

وانظر كيف وضحت الآيات وهي تسرد مايحكي الهدهد ، السمات التي تميز الهدهد عن غيره من بني جنسه ، وتجعل لغيبته أثرها في نفس سليمان ... الهدهد يعلم ان سليمان ملك حازم . وانه تغيب عن مجلسه ، والحزم صفة لازمة لسلامة الملك ــ وسياسة الرعية . وهو يعلم ان الوجدان محتشد له لإنزال العقاب .. والهدهد في موقف لا يحسد عليه .. ولقد استطاع الهدهد بذكائه أن يحول الوجدان الغاضب إلى وجدان اندهاشي ليستر به حالة الغضب ، ويخفف حدة التهديد .. فلجأ إلى استخدام عنصر .. المفاجأة .. ولأمر فني أساسي في بناء هذه القصة ــ تكررت المفاجأة .. لتصبح عنصرا بارزا في بناء القصة ، وفي الملامح التكوينية في الشخصية .

والقى الهدهد بالمفاجأة أمام سليمان الملك .. أحطت بما لم تحط به . ولقد صحب تلك المفاجأة انفعال الدهشة .. كما صحب الدهشة الرغبة القوية في معرفة هذا الذي يعلمه الهدهد ويعجز عن معرفته سليمان .. الموقف ساخن ، والهدهد الذكي لا يريد ان تبرد حدة الموقف .. حيث القى بالخبر ، وعرض النبأ مفصلا .. فلعب التشويق دوره في تقبل النبأ ومصاحبة الهدهد وهو يحكي حكايته .

والهدهد لا يزال واقعا تحت الاحساس بالذنب .. ومن ثم يستثير الجانب الحكيم في شخصية سليمان .. الجانب النبوي ــ الذي يهتز حين ينهي الهدهد سرد القصة بقوله (الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) . لقد لمس قلب سليمان بتلك الاشارة . إننا أمام هدهد

عجيب ، صاحب إدراك وذكاء وإيمان ، وبراعة في عرض النبأ ويقظة إلى طبيعة موقفه . فهو يدرك أنه يتحدث عن ملكة ، وأنهم يسجدون للشمس من دون الله ، ويدرك أن السجود لا يكون إلا لله . (إنه هدهد خاص أوتي هذا الادراك الخاص على سبيل الخارقة التي تخالف المألوف)(٢٥) .

(ب) قال تعالى :

﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين . اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون﴾(٢٦)

تلقى سليمان النبأ الذي سرده الهدهد ، ولكنه ظل كما هو هادئاً ساكنا إن ذلك يعني تحولا من حالة الغضب ، إلى حالة من السكون تمهل المذنب للتأكد من تبريراته التي ساقها خروجها من المأزق الذي وضع فيه . إن سليمان يعطيه ــ كالقاضي ــ الفرصة العادلة للتحقيق من القصة التي أوردها .

ولقد جاء اسلوب الاستفهام ملائما للحالة العقلية الهادئة التي صحبت القصة ، فحدد الموقف بين طرفين الصدق ، والكذب ، والهدهد يعلم وهو يلفظ بهذا التخيير .. نتيجة كل طرف وأثره .

الموقف تجربة عملية لتطبيق مبدأ العدل .. ووسيلة حسية لادراك الحقيقة ، وهو مايميز سليمان ، الملك العادل ، وهو ما اشتهر به ، وتواتر عنه .

ومن ثم أقر سليمان الهدهد بأن يتناول ذلك الكتاب الممهور ... بخاتمه وشعار ملكه ويذهب به إلى ملكة سبأ ، وطلب منه أن يتنحىَّ وينظر ماذا يردون من جواب .

---

(٢٥) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء (١٩) ص٢٦٣٩ .

(٢٦) سورة النحل ٢٧ ــ ٢٨ .

وذهب الهدهد بالكتاب — ولك أن تتخيل المشاعر التي دبت داخل الهدهد «مشاعر الفرح ، ومشاعر الطمأنينة ، ومشاعر النجاة ، من عقاب صارم فضلا عن علو المكانة بفضيلة الصدق — والزهو بأنه الوحيد الذي أعلم سليمان بنبأ كان مجهولا على سليمان نفسه .

لقد أخذته هزة الفرح .. فطار مرفرفاً حيث ملكة سبأ .. بلقيس الملكة المتوجة .

٣ — قال تعالى :

(أ) **﴿قالت يا أيها الملأ إني ألقي إليّ كتابٌ كريمٌ ، إنَّه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين . قالت ياأيها الملأ افتوني في أمري ماكنت قاطعة أمراً حتى تشهدون . قالوا نحن أولو قوة وألوا بأسٍ شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين . قالت إنَّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةً وكذلك يفعلون . وإني مرسلة إليهم بهديةٍ فناظرةٌ بم يرجع المرسلون﴾**(٢٧) .

هذه الآيات من القصة تحكي مشهد تلقى بلقيس كتاب سليمان .. إن بلقيس تفتح الكتاب .. وإنه يتضمن دعوته لهم إلى طاعة الله وطاعة رسوله والانابة والاذعان إلى الدخول في الخضوع لملكه وسلطانه(٢٨) فلا يستكبرون عن الطاعة ولا يتوانون عن القدوم مسلمين مطيعين . والأمر حاسم ومقطوع به . وجمعت الملكة كبراء قومها وعرضت عليهم الكتاب وطلبت منهم المشورة . فقالوا لها انهم رجال حرب وقوة . وبذلوا لها السمع والطاعة وأخبروها بما عندهم من الاستطاعة وفوضوا إليها في ذلك الأمر ، لترى فيه ماهو الأرشد لها

---

(٢٧) سورة النحل ٢٩ — ٣٥ .

(٢٨) قصص الأنبياء — ابن كثير . تحقيق عبدالقادر عطا ص٢٧٤ جـ٢ .

وهم[٢٩] وكان رأيها أن الملوك إذا استولوا على بلدة عنوة وقهراً خربوها وأهانوا أشرافها وأذلوهم ، وتلكم عادتهم[٣٠] .. وإني مرسلة إليه بهدية عظيمة تليق بمثله ثم لأنظر أيقبلها أم يردها .

في هذا المشهد الذي يحكي لحظة وقوع الكتاب في يد بلقيس .. وردّ الفعل إزاء ذلك .. تبرز ملامح الملكة بروزاً واضحا في حوار مع كبراء قومها . فتبدو .. الملكة لبقة .. أريبة في هذا المشهد .. وهي تطرح الأمر على رجالها . فالأمر جاد ، وحاسم ، ويقتضي المشورة . والانفراد بالرأي في مثل هذا الموقف لا تحمد نتيجته . إنها تعرض الأمر كملكة ، والحاشية تجيب كما تجيب دائماً الحاشية ، فهم مجندون لخدمة الملكة .. ثم هم يعرفون مقدارهم جيداً .. فيلقون الأمر عليها كلية .. وينتظرون الأمر ..

وإلى هنا فإن الحوار يعكس تماما سلوك الملكة في موقف مأزوم ..

ثم يظهر على مسرح الموقف ملمح آخر للملكة .. إنه ملمح ... عقلي ، حيث تعلم بخبرتها وبثقافتها مايفعله الملوك حين يغزون البلاد .. ومن ثم استبعدت حلّ الحرب وكانت في ذلك حازمة الرأي سديدة الفكر ..

ثم يترقرق على الموقف شخصية المرأة المستكنة داخل الملكة ... فتقترح أن ترسل هدية عظيمة إلى سليمان . إن الهدية سلاح في يد المرأة ، وهي تعلم أنها وسيلة إلى ترقيق القلوب .. إنها كما يقولون .. جسُّ نبض .. قال قتادة : علمت أن الهدية تقع موقعاً من الناس . وقال ابن عباس : قالت لقومها إن قبل الهدية فهو ملك

---

(٢٩) نفسه ص٢٧٦ .

(٣٠) صفوة التفاسير ص٤٠٨ جزء ٢ .

يريد الدنيا فقاتلوه ، وإن لم يقبلها فهو نبي صادق فاتبعوه[٣١]

إنها أرادت بهذه الهدية أن تجمع الأطراف معاً ، فهي تريد أن تأمن جانب سليمان . كما أنها تريد أن تصانع عن نفسها ، وأهل مملكتها بهدية ترسلها وتحيف تبعثها[٣٢]

إذن فشخصية بلقيس كما يوحى بها المشهد .. شخصية قوية .. فهي ملكة قادرة ، وآمرة وقرارها مطاع .. كما أنها ملكة تؤمن بالشورى والحوار ، ولو انفردت بالأمر في النهاية .. ثم هي تعرف كيف تفصل بين الملكة كشخصية حاكمة ومسؤولة ، وبينها كامرأة لها مشاعر وقلب ووجدان .. امرأة تعرف كيف تستميل قلب الرجل ــ لقد برزت هذه الصفات في مجالها دون اختلاط أو تشويه .

(ب) قال تعالى :

﴿فلما جاء سليمان قال أتُمِدُّونَنِ بمال فما آتاني الله خيرٌ مما أتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ، ارجع إليهم فلنأتينَّهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾[٣٣]

في هذا الجزء من المشهد يتبين لنا موقف سليمان من الهدية ... فهاهم أولاء رسل ملكة سبأ يحملون الهدايا إلى سليمان ــ ولكنه أنكر عليهم ذلك وغضب ، فهو لا يشتري بالمال ولا يتحول عن دعوة الاسلام ، وما أعطاه الله من الملك والنبوة لخير مما أعطوا ومما حملوا . وإنهم قوم يفرحون بالهدايا لأنهم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا . وأمر الرسول .. (ارجع أيها الرسول إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولا قدرة على احتمالها ، ولنخرجنهم من سبأ أذلة

---

(٣١) صفوة التفاسير جـ٢ ص٤٠٨ .

(٣٢) قصص الأنبياء ابن كثير ص٢٧٦ .

(٣٣) سورة النحل ٣٦ ــ ٣٧ .

ذاهبا عنهم العز والملك والسلطان)[٣٤]

في هذا المشهد ، يبدو حزم النبي سليمان في أمر الدعوة .. فلا مصانعة في الدين .. ومن ثم صحب ذلك .. الاستنكار الشديد ، الدال على حدة الانفعال ، وعاد إلى التهديد مرة أخرى .. تهديداً سافراً بعدما كان مضمراً في الكتاب . «والآن لقد ردّ الرسل بهديتهم ، فلندعهم في الطريق قافلين إن سليمان النبي لملك ، وانه كذلك لرجل ، وإن الملك ليدرك من تجاربه ان هذا الردّ الضيق سينهي الأمر مع ملكة لا تريد العداء ، كما يبدو من هديتها له — وأنها ستجيب دعوته على وجه الترجيح بل التحقيق»[٣٥] .

٤ — قال تعالى :

﴿قال ياأيُّها الملأ أيُّكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين . قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك ، وإنيِّ عليه لقوي أمين .

قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك . فلمّا رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإنَّ ربي غني كريم . قال نكروا لها عرشها ، ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون﴾[٣٦] .

رجع رسل بلقيس إليها ، وألقوا عليها بالخبر ، فأدركت لتوها ان هذا ليس بملك ، وأنه لا طاقة لها به . فأرسلت إليه بما يفيد أنها قادمة . إذ لا مفر من السمع والطاعة .

---

(٣٤) قصص القرآن ص١٧٠ .

(٣٥) التصوير الفني ص٢١٣ .

(٣٦) سورة النمل ٣٨ — ٤١ .

وذلك هو المدخل المتصور للمشهد الرابع .. مشهد ترتيب سليمان للمفاجأة التي ستهز بلقيس الملكة ، والمرأة .

ولقد أراد سليمان عرش بلقيس فكان له ما أراد ، فلقد طلب من قومه أن يأتوه بهذا العرش المرصع بالجواهر واللآلىء .. قبل قدوم بلقيس ورجالها .. وبادر جني مارد قائلا بأنه قادر على إحضاره قبل أن ينفض مجلس الحكم الذي يديره سليمان ، وإنه لقادر على ذلك ، أمين على مافي العرش من جواهر وزينة . ولكن سرعان ماتقدم من عنده علم الكتاب ــ وهو في أشهر الروايات آصف بن برخيّا وهو من الصديقين ــ مبدياً عرضه بأنه يستطيع أن يحضر العرش في لمح البصر . ولقد تعجب سليمان كيف يحدث هذا ؟ كيف يأتي العرش من اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين ؟ ولكن المفاجأة تحدث ، (فها هو يرى عرش بلقيس مستقراً عنده في هذه المدة القريبة من بلاد اليمن إلى بيت المقدس في طرفة عين)[٣٧] فشكر الله على فضله ونعمه التي ينعمها عليه وعلى عباده . ليختبرهم على شكر النعم أو جحودها .. فمن يشكر فشكره يعود عليه بالنفع ومن يجحد فالله غني كريم .

وعندما ادرك سليمان قرب وصول ملكة سبأ وقومها ، أمر أن تغير بعض معالم العرش ليختبر فهمها وعقلها ، وليعرف ما إذا كانت ستهتدي إليه أم لا وهو اختبار للذكاء والعقل .

وفي هذا المشهد تتجلى سمات الشخصية تجلياً واضحاً .. فسليمان هنا ، سليمان الملك الرجل .. (وهنا يستيقظ الرجل الذي يريد أن يبهر المرأة بقوته وبسلطانه .. فها هو ذا يريد أن يأتي بعرش

---

(٣٧) قصص الأنبياء ابن كثير ص٢٧٩ .

الملكة قبل أن تجيء .[٣٨] . وهذه مشاعر إنسانية بحتة ، مشاعر الرجل الذي يريد أن يرى تأثيره على المرأة حتى يستطيع أن يجذب انتباهها جذباً وجدانيا خالصاً .. فتلين له ، وتهدأ ثائرتها ، وهي مشاعر فاضلة لا يختلط بها مايمسها أو يسيء إليها .

ولكنه ملك .. فكان استحضار العرش وسيلة لعرض مظاهر القوة الخارقة التي تناصر وتؤيد سليمان .. والهدف هنا التأثير في قلب المرأة .. وانقيادها إلى الايمان بالله ..

فكأن المدخل إلى الايمان هنا مدخل قلبي معزز بمعجزات وقدرات غير عادية . وسليمان نبي .. استيقظت فيه النبوة أمام نعمة الله .. التي تتحقق على يدي عبد من عباد الله ، فيشكر .. ولقد لمست هذه المفاجأة الضخمة قلب سليمان ، وأدرك أن هناك من أتاه العلم الخفي ــ وان هناك من هو أقدر وأقوى من غيره ، ولو كان من الأنبياء .. إن الموقف هنا يستدعي بالاشارة موقف موسى من العبد الصالح .. حيث تبين الاشارة .. ان العلم أعظم من أن يحويه رجل ، أو ينفرد به رسول ، وان في الأرض من خصه الله بعلم أوفر مما لدى الرسل ، وبنصيب من الالهام أوفر من نصيبهم[٣٩]

والانتفاضة الوجدانية أمام النعمة والشعور بما وراءها من الابتداء يحقق الغرض الديني للقصة ..

ثم تستيقظ مرة أخرى صفة الرجولة في سليمان ليعقد لها إختباراً في الذكاء وحسن التصرف .. وذلك حين طلب تنكير العرش .

ولا شك ان التبدل في سمات الشخصية ، وتبادل الصفات ليدل على وقوع الشخصية تحت تأثير موقف ما .. له أبعاده وآثاره . وان

---

(٣٨) التصوير الفني ص٢١٣ .

(٣٩) قصص القرآن ص١٤٠ .

هذا الموقف من القوة بحيث يتضمن انقساماً لمساحة العواطف والسلوك ، ويبرز مكنونات الذات الانسانية ، فضلا عن ترسيخ قيم ثابتة ، وابرازها .

ولقد جاءت المفاجآت التي تضمنتها المشاهد ، متلاحمة مع نسيج البناء القصصي بحيث قامت بدورها كعنصر بارز ورئيسي لكشف الوجدان الداخلي للشخصيتين المحورتين .. سليمان .. وبلقيس .

٥ ــ قال تعالى :

﴿فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنّه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين . وصدّها ماكانت تعبد من دون الله ، إنهّا كانت من قومٍ كافرين . قيل لها ادخلي الصرْح فلمَّا رأته حسبته لَجَّة وكشفت عن ساقيها قال إنَّه صرحٌ ممرّدٌ من قوارير ، قالت ربّ إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ؟﴾(٤٠) .

ووصلت بلقيس ، واستقبلت بحفاوة تستحقها ، وعرض عليها العرش بجماله وزينته ولآلئه مع بعض من التغيير يضفي عليه تنكيراً ما . وسئلت عما إذا كان هذا عرشها ؟ .. وكان السؤال نتيجة طبيعية للدهشة الفورية التي صاحبت المفاجأة .. مفاجأة أن ترى عرشاً كأنه عرشها . وهذا كما يقول ابن كثير من فطنتها وغزارة فهمها لأنها استبعدت أن يكون عرشها لأنها خلفته وراءها بأرض اليمن ولم تكن تعلم أن أحداً يقدر على هذا الصنع العجيب الغريب(٤١)

وحين أدرك سليمان دهشتها وحيرتها تحدث سليمان بنعمة الله

---

(٤٠) قصص الأنبياء . ابن كثير ص٢٧٩ .

(٤١) النمل ٤٢ ــ ٤٤ .

عليه ، حين أنعم الله عليه بنعمة الاسلام ، على حين كان منع بلقيس من عبادة الله والايمان به هو عبادتها للشمس ، حيث نشأت في قوم كافرين .

وكان سليمان قد أمر ببناء صرح من زجاج وعمل في ممره ماءً وجعل عليه سقفاً من زجاج ، وطلب من بلقيس أن تدخل الصرح ، فلما رأته ظنته لجة فكشفت عن ساقيها لتخوض في مائه .. وأدرك سليمان حرج موقفها وحيرتها فقال انه صرح مملّس من الزجاج الصافي ، فاعترفت أنها ظلمت نفسها بالشرك ، وأعلنت اسلامها مؤمنة برب العالمين .

والغرض ان سليمان عليه السلام اتخذ قصراً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ، ليريها عظمة سلطانه ، وتمكنه ، فلما رأت ما أتاه الله ، وجلالة ما هو فيه ، وتبصرت في أمره ، انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنّه نبي كريم ، وملك عظيم ، وأسلمت لله عز وجل[٤٢]

وهذا المشهد يوضح لنا بعضاً من معالم شخصية بلقيس إضافة إلى معالمها السابقة فهي هنا ، ذات فطنة وذكاء ، يتضح ذلك من سؤالها عن العرش وجوابها . فدلت بقولها (كأنه هو) على فراسة وبديهة في مواجهة تلك المفاجأة العجيبة الغريبة التي رأتها .

وهي هنا تندهش ويطول اندهاشها ، وتلك سمة من سمات المرأة عامة ، حين تنبهر بشيء جميل ، فتنجذب إليه ، وتستحسن مرآه ، فمابالنا بذلك الصرح العظيم المنيف المملّس من زجاج صافٍ رائق .

ولقد صاحب هذا الانبهار مراجعة عقلية للمدركات التي ادركتها ، وللمفاجآت التي استوعبتها ، ووصلت بعقلها وتفكيرها إلى أن الاسلام

---

(٤٢) صفوة التفاسير جـ٢ ص٤١٠ .

إسلام لله رب العالمين . لقد اهتدى قلبها واستنار عقلها .

ولقد برزت المفاجأة في هذه القصة بروزاً واضحاً ، بل تكررت أكثر من مرة ، واصبحت عنصراً بنائياً فعالا في نسيج القصة الفني ، كما أنها وسيط معنوي لنقل الفكر والهدف الديني المصاحب له .. فهي لم تأت اعتباطاً .

والمفاجأة بطبيعتها ذات أثر خاص في نفسية الانسان وداخله ودوافعه وردود فعله ، وهي هنا تأتي بطريقة موضوعية تثير العقل والقلب على السواء وهي حين تتحقق لا تبدو أنها مقحمة على نسق القصة ، بل هي تبدو معقولة تماماً ، في تواجدها ، وبنائها .. فتنسجم مع ظروف القصة ، وطبيعة الموقف وملابساته ، وتلائم الجو العام الذي يسود الحدث .. وترتبط بسياق القصة ونطاق أحداثها ومواقفها .

والغرض الديني بارز في القصة ، فالقصة تبرز بصفة خاصة استقبال ملكة سبأ وقومها لكتاب سليمان ـــ وهو عبد من عباد الله ـــ واستقبال قريش لكتاب الله ، هؤلاء يكذبون ويجحدون ، وأولئك يؤمنون ويسلمون ـــ والله هو الذي وهب سليمان ماوهب ، وسخّر له ماسخّر ، وهو الذي يملك كل شيء[٤٣] ... ولكن العرض الفني للقصة أيضاً ـــ وهو لا يتنافى مع الغرض الديني ـــ قد أبدع في تصوير الشخصية في هذا المشهد الأخير ابداعاً يفي بالغرض الديني والفني على السواء .. وإنه يكفي لقصة دينية وجهتها الدين وحده ، أن تبرز هذه الانفعالات النفسية وأن ترسم هذه الانفعالات النفسية ..

فلقد كانت بلقيس «امرأة» كاملة ، تتقي الحرب والتدمير ، وتستخدم الحيلة والملاطفة ، بدل المجاهرة والمخاشنة ، ثم لا تسلم

(٤٣) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ١٩ ص٢٦٢٥ .

لأول وهلة ، فالمفاجأة الأولى تمر فلا تسلم ، فإذا بهرتها المفاجأة الثانية وأحست بغريزتها ان إعداد المفاجأة لها دليل عناية «الرجل» بها ، وألقت بنفسها إلى الرجل الذي بهرها ، وأبدى اهتمامه بها ، بعد الحذر الأصيل في طبيعة المرأة والتردد الخالد في نفس حواء[٤٤] .

---

(٤٤) التصوير الفني ص٢١٥ .

الفصـــل الثانـــي

٢ ـــ القصة والجـدل



٢ ـ القصة والجدل

لا شك أن لقصص القرآن الكريم أثرا بليغاً في توجيه العقيدة والدعوة إليها ، فضلا عن تأصيل السلوك الأخلاقي ، ذلك ان السلوك منشؤه شعور بالانفعال بموقف مايدفعه إلى الفعل ، وحين يكون الشعور الوجداني قد تربى في حضن القيم فإن رد الفعل الناشيء عن دافع الانفعال سيحظى بالضبط الأخلاقي والحرص المسلكي المتوائمين مع العقيدة التي تأصلت جذورها في أعماق الوجدان .

وتأثير القصة التي تصف وتصور ماحاق بالمكذبين للرسل وللأنبياء من أهوال العذاب والخسف والتدمير ، لتأثير قوى ، ذلك أنه يحدث إحساسا بالخوف من عاقبة تشبه تلك العاقبة ، ومن عصيان يشبه ذاك العصيان ، ومن تكذيب يماثل ذاك التكذيب ، ومن معاندة تماثل تلك المعاندة .. الأمر الذي يجعل الانسان وهو يتلقى ذلك كله يعقد في مخيلته المقارنات بين ماكان .. وبين مايكون بين موقف الأمم من انبيائهم .. وموقف الكفار من محمد ﷺ . ولا ينتهي الأمر عند مجرد عقد المقارنة ، بل إن التصور الذهني المصحوب بالانفعال الوجداني ليرسم في الذهن تلك المشاهد المهولة التي تصور تلك النهايات المفزعة والمؤثرة .

إن هذا الشعور بالخوف من العقاب ليس شعورا وقتيا ، وإنما هو شعور يتجدد في نفس الذات المؤمنة كلما أثار الانفعال ذكر قصة من قصص القرآن الكريم .. وهو هدف تسعى إلى تحقيقه القصة القرآنية ..

والقرآن الكريم ــ والقصص القرآني بعض كثير منه ــ يؤلف على اختلاف مقاصده وحدة كاملة متكاملة ، ومتناسقة .. في العقيدة ..

والقصص القرآني وهو يتبع هذا المنهج القرآني ، يعتمد في ابراز هذه الوحدة على تجربة شعورية دينية يطمئن إليها الفكر العقلي ، أي يصبح قوام التجربة القصصية ، جانبا وجدانيا وآخر عقليا ..

وتلك من الحقائق الثوابت في قصص القرآن .. حتى تلك القصص التي جاءت حوادثها مقترنة بخارقة من الخوارق التي تستعصي على العقل البشري .. الجانب الثاني من جوانب وحدة القصة القرآنية .. وتلك الخوارق تدخل في باب الاعجاز الذي أيّد به الله رسله وأنبياءه .. فقد جرت حكمة الله الأزلية أن يؤيد أنبياءه ورسله بالمعجزات الباهرات والدلائل الواضحات والحجج والبراهين الدامغة التي تدل على صدقهم وعلى أنهم أنبياء مرسلون من عند الله العزيز القدير . وهذه المعجزات معجزات حسيّة تتناسب مع العصر والزمان والموقف الذي حدثت فيه .

والهدف من هذا الجانب الخارق للعادة ولمظاهر الحياة الطبيعية ، والذي يؤلف جانبا كبيرا في القصص القرآني ، هو إظهار عجز البشر وإثبات ان ماجاء به الأنبياء وحي من الحكيم العليم . وأنهم إنما يبلغون رسالات الله ، وليس لهم إلا الأخبار والتبليغ .. (فالمعجزات إذن براهين من الله سبحانه إلى عباده بصدق رسله وانبيائه ، فكأن الله تعالى يقول . صدق عبدي فيما بلغ عنى وأنا أرسلته ليبلغكم ذلك . والدليل على صدقه أن أجرى على يديه خوارق العادات مما لا يستطيع أحد منكم أن يأتي بمثله[1] .

ففي قصة سليمان وملكة سبأ أحضر العبد الصالح عرش بلقيس في طرفة عين . وقلنا إن تلك الخارقة كانت مفاجأة أثارت بلقيس ،

---

(١) التبيان في علوم القرآن ص٨٩ —

واثارت عقلها ، وأدركت بالعقل أن سليمان مؤيد من السماء . فأعلنت إسلامها[٢] .. وثمة خوارق كثيرة في قصص القرآن .. نأخذ نموذجاً عليها خارقة البعث في قصة ابراهيم .

ولقد غلب على مثل هذه القصص الجدل والمحاورة . وجدل القرآن يدور حول قضايا ينكشف فيها الحق ويدحض الباطل .

قال تعالى :

﴿وإذ قال ابراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى ، قال أولم تؤمن ، قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي ، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا ، واعلم أن الله عزيز حكيم﴾ [٣]

إن ابراهيم هنا يتشوف إلى سرّ الصنعة الالهية ، وحين يجيء ذلك منه فإنه يكشف عما يختلج في النفس أحيانا من الشوق والتطلع إلى الاقتراب من سرّ الصنعة الالهية ..

ويستجيب الله لهذا الشوق والتطلع في قلب ابراهيم ، ويأمره الله أن يختار أربعة من الطير وأن يذبحهن ويفرق أجزاءهن فوق الجبال ثم يدعوهن ، فتتجمع الأجزاء المتفرقة وترتد إليها الحياة .

إنه أمر الله ، والناس لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء . والنفوس ولو كانت مؤمنة تسعى إلى الحصول على أكثر من دليل لتزداد إيمانا وإذا كان ابراهيم عليه السلام .. قد سعى وراء ذلك وطلبه ، فمابالنا بالرجل العادي .. ومن ثم وردت الخوارق ، والأدلة العقلية ، على ترسيخ الايمان ، وتأصيل العقيدة ليتكشف الأمر

---

(٢) انظر فصل التصوير الفني ، تصوير الشخصية . (٣) سورة البقرة آية ٢٦٠ .

للانسان .. فيزداد المؤمن ايمانا ويبوء الجاحد بالكفر والعقاب .

إن الخارقة ولو كانت مادية حسيّة ، لتنزل على القلب فتطمئن ، وتهدىء من انفعاله ، وتطهر من نوازعه ، وتغسله مما يمكن أن يكون قدران عليه من رجس الشيطان أو ارتكاس إلى العبادات الفاسدة ..

وإذا فحصنا هذه الوقائع الخارقة التي سيقت في مجال الاعجاز أو التثبيت أو المؤازرة ، أو الدليل العقلي .. لوجدنا أنها تكشف عن إرادة كاملة تجري على سنن تثير العقل والتفكير للنظر والبحث والتأمل والاستقصاء .. والبحث فيما وراء تلك الوقائع وماتدل عليه ومالها من انعكاسات في النفس على طريقة التنبيه والايقاظ ، لمواجهة موضوع الفكر والايمان تصد التوصل إلى إدراك الحقائق التي يعرضها القرآن الكريم على الفكر الانساني الطبيعي المتحرر ، لا الفكر المقيد بالقوالب النظرية المصطنعة والقضايا الفلسفية المصنوعة (٤) والأدلة العقلية حين تساق في القصص فإنها تتخذ سبيلها إلى الاقناع والتأثير . والقرآن الكريم قد ضمن قصصه الأدلة العقلية على بطلان مايعتقده المشركون . ومواجهة الرسل والأنبياء لأممهم بالحجة والبرهان والدليل .. وبلسان القوم فيه اجتذاب للعقل ، ومدعاة إلى التأثير .. بل وقد يكون مفحما لا رجعة فيه .. ولا شك إن قصة ابراهيم مع ملك القوم ، نموذج لذلك الجدل العقلي البحت .. الذي يؤكد على التوحيد ، وإفراد العبادة لله .

والعرب ينتسبون إلى ابراهيم ، فهو والد اسماعيل .. والعلاقة بين العرب وبين ابراهيم علاقة قوية .. فإذا ماحكت القصة جدل ابراهيم للملك الضال الوثني .. وأكدت على الوحدانية فإن ذلك يحمل تأثير

---

(٤) سيكلوجية القصة في القرآن . القافلة رجب ١٤٠٥هـ .

في قلوبهم .. ويدعو إلى الارتباط الحقيقي بالعقيدة ، والابتعاد عن الشرك .. ومن ثم يتوجه الدليل إلى كفار قريش أنفسهم بحكم أنهم من العرب الذين يرتبطون بإبراهيم .. ويوجههم إلى التوحيد وافراد العبادة لله .

(ومجيء الدليل على لسان رسول يقر بفضله المخالفون كإبراهيم عند العرب أو موسى عند بني اسرائيل ، يعطي الدليل قوة فوق قوة ، إذ تكون الحجة قد اقيمت عليهم من جهتين ، من جهة قوة الدليل الذاتية ، ومن جهة أن الذي قاله رسول أمين يعرفونه ، فيكون هذا قوة إضافية ، وفوق ذلك فيه إلزام وإفحام ، إذ أنهم يدعون أنهم أتباعه(٥)

قال تعالى :

﴿ألم تر إلى الذي حاج ابراهيم في ربه ان آتاه الله الملك ، إذ قال ابراهيم ربِّي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم ، فإنَّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ، فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾(٦) .

في قصة ابراهيم مع الملك .. نجد ابراهيم وهو في مجال الجدل العقلي البحت واستخدام البرهان العقلي نجده يلجأ إلى الطريق الذي يحسم هذا الخلاف المشتجر بينه وبين ملك القوم الذي يدعي الألوهية .. والذي ترجح الروايات أنه النمروذ .

إنه يلجأ إلى الدليل الحسي الذي يقطع لجاجة القول ويفحم أطراف الحوار المعارضين ، وإذا كان الملك قد فهم حين جادله

---

(٤) القرآن المعجزة الكبرى ص٣٧٥ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٥٨ .

ابراهيم حول الموت والحياة ، أن مجرد القتل يعني الاماتة ، وتركه يعني الحياة .. وهو يدل على منطق عاجز وعقل خاوٍ من المدركات العقلية الشاملة .. فإن ابراهيم قد ألقى بالدليل الحسي الذي يقضي على كل لجاجة وكل جدل عقيم .. دون أن يأخذه الجدل ، وحبّ الحوار إلى تفريعات خارج الاطار البرهاني المحدد .. كأن يتحدث عن الفرق بين الموت في الآية ومعناه عند الملك ، أو عن الحياة كما جاء في الآية ومعناها عند الملك .. ولكنه مضى إلى هدفه سريعا وحاسما ، وتلك صفة برهانية عقلية لازمة في مجالات الحوار الجدلي الذي يدور حول قضايا كلية حاسمة كقضية العقيدة ، والايمان بالوحدانية ، وبحيث لا يكون هناك إلا التسليم والاقتناع .

وكان مطلب ابراهيم العقلاني ــ مادام الملك قد ارتضى ان يعقد مقارنة بينه وبين الله ــ أن يأتي بالشمس من المغرب ، وأن يحول الخلقة التي خلقها الله ، وأن يعيد ترتيب الكون .. وأمام تلك الحجة بهت الذي كفر .

إن هذا الجدل الذي يعرضه القرآن على محمد ﷺ وعلى جماعة المسلمين ، مثال لموقف الضلال والعناد من القضايا الرئيسية التي تحتاج إلى برهان ، إذ كل البراهين العقلية والأدلة الحسية توصل إلى حقيقة التوحيد ، وإفراد العبادة لله .. إنها تجربة وموقف يتزود بها أصحاب الدعوة الجدد في مواجهة المنكرين .

والنصوص القرآنية تؤكد على ذلك .. وتحسم المسألة ، وتعلن تحرير الانسان بل تعلن ميلاد الانسان .

إنه بهذا الاعلان يخرج الناس من عبادة العبادة إلى عبادة الله وحده والانسان الكامل لا يوجد في الأرض إلا يوم تتحرر رقبته وتتحرر حياته من سلطان العباد ــ في أية صورة من الصور ــ كما يتحرر

ضميره واعتقاده من هذا السلطان سواء[٧] .

وهذه هي الهدية التي يهديها الله إلى الناس في الأرض بعقيدة التوحيد .

ولقد اثبت القصص القرآني أن الله وحده هو المستحق للعبادة ، وبين بطلان عبادة الأوثان .. التي هي أسماء سموها هم وآباؤهم ... ما أنزل الله بها من سلطان .

كما أن في هذه القصص القرآنية اثباتا للوحدانية .. للذين يدعون ألوهية ... البشر .

وفي قصة عيسى عليه السلام الدليل القوي على أنه عبدالله تعالى ..

قال تعالى :

﴿ياأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ، ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا لكم ، إنما الله إله واحدٌ سبحانه أن يكون له ولد ، له مافي السماوات وما في الأرض وكفي بالله وكيلا ، لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا﴾[٨] .

قال تعالى :

﴿إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحقّ من ربك فلا تكن من الممترين .[٩] ...

---

(٧) خصائص التصور الاسلامي سيد قطب ص٣٣٤ .

(٨) سورة النساء آيات ١٧١ ـــ١٧٢ .

(٩) سورة آل عمران ـــ ٥٩ ـــ ٦٠ ، آل عمران ٦٢ .

إنَّ هذا لهو القصص الحقّ وما من إله إلا الله وإنَّ الله لهو العزيز الحكيم﴾

مجاوزة الحد . وكان الواجب ان يعتقدوا أنه عبدالله ورسوله وابن أمته العذراء البتول التي احصنت فرجها فبعث الله جبريل فنفخ فيها بأمر الله نفخةً حملت منها بولدها عيسى عليه السلام والذي اتصل بها من الملك هي الروح المضافة إلى الله إضافة تشريف وتكريم وهي مخلوقة من مخلوقات الله .(١٠)

والآيات التي وردت في قصة عيسى عليه السلام تتجه إلى انصاف الحق والعقيدة ، وتصحيح عقائد أهل الكتاب المشحونة بالأساطير . ولقد جاء الاسلام ليتولى تصحيح العقيدة للبشر أجمعين . ولذلك جاء النهي بالبعد عن الغلو وتجاوز الحد والحق حين يزعمون ان لله ولدا ، وانهم يفسرون البنوة هنا ــ خروجا من فساد الادراك العقلي ــ بأنها ليست ولادة عن طريق الطبيعة البشرية ، وهو تحايل يدل على الوقوع في الخطأ ..

فالله سبحانه وتعالى ــ متعالٍ عن المشاركة والمشابهة .. ومقتضى كونه خالقا يستتبع بذاته أن يكون غير الخلق .

ولقد خلق الله عيسى بالأمر الكوني (كن .. فيكون) كما نفخ الله من قبل من روحه في طينة آدم ، فكان انسانا . فالأمر له سابقة ، والروح هنا هي الروح هناك ــ ولم يقل أحدٌ من أهل الكتاب ــ وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله ــ إن آدم إله ، كما قالوا عن عيسى ، إن الذي وهب لآدم ــ من غير ابوين ــ حياة انسانية متميزة بنفخة . لهو الذي وهب عيسى ــ من غير أب هذه الحياة

---

(١٠) قصص الأنبياء ابن كثير ص٣٨٧ .

الانسانية نفسها .. وهذا البرهان العقلي الواضح البسيط ، لدليل قوي وبليغ على ان الله واحد لا شريك له ، ويشهد بذلك العقل البشري ، فالقضية في حدود ادراكه ، فالعقل لا يتصور خالقا يشبه مخلوقاته ولا ثلاثة في واحد .

ولا واحدا في ثلاثة .

والمسيح عيسى بن مريم لن يتعالى على أن يكون عبدالله .. لأنه عليه السلام وهو نبي الله ورسوله خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان .

ولقد عني الاسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه وحدانية لا تتلبس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور وعني بتقرير ان الله ـــ سبحانه ـــ ليس كمثله شيء . فلا يشترك معه شيء في ماهية ولاصفة ولا خاصيته .

وقضية عيسى عليه السلام أخذت كثيراً من الجدل والمناظرة ، والقرآن الكريم يوجه نظر محمد ﷺ إلى ان ذلك هو القصص الحق ، وأن ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر .. ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر .. إن هذا التقرير يتجه إلى الرسول يثبته على الحق الذي معه والذي يتلى عليه . ويؤكده في حسه كما يؤكده في حسّ من حوله من المسلمين ، الذين ربما تؤثر في بعضهم شبهات أهل الكتاب .

ويوجه القرآن الكريم النظر إلى أن الحق كل الحق من الله ، فلا تكن من الممترين . وما كان الرسول ممتريا ولا شاكا ، وإنما هو التثبيت على الحق .. وإننا لندرك من هذا التوجيه .. مدى ماكان .. يتعرض له المسلمون من كيد فوجب تثبيتهم على الحق في وجه الكائدين والخادعين ، وبيان أن الكون بجملته لا يستقيم أمره

ولا يصلح حاله إلا ان يكون هناك إله واحد يدبر أمره ..[11]

إن ذكر قصة عيسى أو ذكر جزء منها اقترن ببيان وحدانية الله ..

ولقد نفت الآيات . الدعوى من أصلها فبينت أن المسيح لم يدعها فقد كان هو الداعي إلى التوحيد .

ولقد جاء ذلك كله ضمن قصة ، فكان تصريفاً في الاستدلال إذ ان سوق الدليل في ضمن قصة يجعله أكثر سريانا في النفس ، وانسيابا في أطوائها .

وقد يجيء الدليل أحيانا في قصص القرآن على لسان حيوان أو طائر فيكون ذلك غرابة تسترعي الذهن ، وتثير الانتباه وتملأ النفس إيمانا بالحقيقة . وذلك كما جاء على لسان الهدهد في سورة النمل في قوله تعالى :

﴿إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ، الا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ، ويعلم ماتخفون وماتعلنون ، الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾

إن دليل التوحيد جاء على لسان الهدهد ، في عبارة موجزة وإشارة واضحة ، إنه ينبه في سرده للقصة إلى بطلان عبادة الشمس من دون الله ، وذلك ضلال للفطرة ، وهو جانب جاء من تزيين الشيطان الفاسد الأفكار والدائم الوسوسة ، فجعلهم بذلك يبتعدون عن حكم الفطرة السليمة ، وهو أن يسجدوا لله الذي يخرج المخبوء من البذور

---

(١١) في ظلال القرآن مجلد (١) جزء (٣) ص٤٠٤ ــ ٤٠٦ ، وكذلك المجلد (٢) من المرجع نفسه (١) الجزء ٦ ص٨١٤ ــ ٨٢٠ .

والنوى وكل أسباب الوجود[١٢] .

إن الجدل في القرآن .. وفي القصص القرآني خاصة ــ يتوجه في الكثير الغالب إلى ارشاد القارئين والمدركين ، والأخذ بأيديهم إلى الحق ، وتوجيه النظر إلى الحقائق وما في الكون من دلائل على القدرة .

إن الأسلوب الجدلي في القرآن الكريم يمتزج بالأسلوب العاطفي ، دون أن يكون ذلك على حساب البرهنة العقلية . فهو يخاطب الانسان ويثيره ليحرك تطلعه إلى معرفة الحقائق المرتبطة بحياته ، كما يدعوه إلى النظر في الكون للاهتداء إلى الايمان ، ولا شك ان الاثارة الذهنية موجهة إلى القوة العقلية ليكون الايمان قائماً على تدبر وتأمل .

لقد عمد القرآن الكريم إلى لمس البداهة وإيقاظ الاحساس ، لينفذ منها مباشرة إلى البصيرة ويتخطاهما إلى الوجدان ، وكانت طريقة التعبير عن الجدل طريقة تصويرية خالية من التعقيد اللفظي والجدل الذهني البحت .. وإنما تعتمد على الصور والحواس والمشاهد ، والحوار الخلاق . وذلك كله يشترك في مخاطبة الحس والخيال ولمس البصيرة والوجدان من أجل تركيز عقيدة التوحيدة في النفوس .

ولهذه الطريقة فضلها في أداء الدعوة لكل عقيدة . وهي طريقة ذات أداء فني عالٍ . «فوظيفة الفن الأولى هي إثارة الانفعالات الوجدانية ، وإشاعة اللذة الفنية بهذه الاثارة وإجاشة الحياة الكامنة بهذه الانفعالات ، وتغذية الخيال بالصور لتحقيق هذا جميعه .. وكل أولئك تكلفة طريقة التصور والتشخيص للفن الجميل[١٣]

وقد سلك القرآن الكريم مسلكا خاصا في الجدل أرسى به القواعد

---

(١٢) القرآن المعجزة الكبرى ص٣٧٦ .   (١٣) التصوير الفني في القرآن ص٢٤٢ .

الأخلاقية فيه قال تعالى : **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وانزل إليكم وإلهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون﴾**(١٤).

ولقد تجاوز الجدل القرآني هذا الخلق الكريم إلى قاعدة أخلاقية أخرى وهي (أن يكون الحق هو المستهدف من الجدل وليس الباطل . إنه من هنا نهى القرآن الكريم النبي عليه السلام أن يجادل من ليسوا على الحق وهو نهي يقصد به جميع المسلمين ..)(١٥)

قال تعالى :

﴿ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خوّانا أثيما﴾

وقد ينحو الجدل منحى حواريا جديدا ، وذلك حين يتحول إلى جدل بين الانسان ونفسه .. ذلك ان الجدل في مثل هذه الحالة يعكس صورة الصراع المشتجر بين الذات البشرية ومايدور داخلها من أفكار ورؤى .. ففي لحظات التأزم وفي منحنيات القضايا الكبرى — تلبد النفس تحت جناح الجدل الداخلي .. من أجل الوصول إلى حل لقضية تشغل النفس وتحتوى فكر ووجدان الذات . وإذا كانت صور الجدل في القصص القرآني التي عشناها ، جاءت خارجية ، تبرز إلى المدركات العقلية البراهين الفكرين الدالة على قضية الجدل والحوار لاثبات صحة العقيدة ، والتأكيد على الوحدانية ، فإن بعض الصور القصصية تناولت الجدل الداخلي ، أي حوار النفس أو جدل الذات حول مايؤرقها ويشغل بالها ..

---

(١٤) العنكبوت آية ٤٦ .

(١٥) مفاهيم قرآنية د. محمد أحمد خلف الله ص١٥٨ .

ولا شك أن قضية الوحدانية قد شغلت وجدان ابراهيم عليه السلام واستحوذت على تفكيره ، وصاحبة ليله ونهاره ، جهره وصمته ، سكونه واهتزازه .. قال تعالى :

﴿فلما جنَّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلمّا رأى القمر بازغاً قال هذا ربي ، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم إني بريءٌ[١٦] مما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين﴾[١٧]

إن هذه الصورة القصصية ، تكشف عن داخل النفس وما اشتجر فيها من صراع حول معرفة الحقيقة الدينية التي يسعى ابراهيم عليه السلام إلى كشفها حتى تفيض عليه نوراً ويقيناً ، إنه حوار جدلي نفس يدور حول الاهتداء القلبي والعقلي إلى وحدانية الله .. وتوحيده .

يقول الزمخشري حول هذه الحلقة من قصة ابراهيم عليه السلام : (وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ويعرفهم ان النظر الصحيح مؤد إلى ان شيئاً منها لا يصح أن يكون إلها لقيام دليل الحدوث فيها وأن وراءها محدثا أحدثها وصانعا صنعها ومدبرا دبر طلوعها وأفوالها وانتقالها ومسيرها وساء أحوالها ..)[١٨]

ومن ثم فلقد جاءت العبارة القرآنية **﴿لئن لم يهدنى ربي﴾** لبيان حقيقة مؤكدة ان من يمضي في الطريق هذا ضال كما انها (تنبيه

---

(١٦) النساء ١٠٧ .

(١٧) الأنعام : ٧٦ ــ ٧٩ .

(١٨) الكشاف جـ٢ ص٢٤ .

لقومه على أن من اتخذ القمر إلها وهو نظير الكوكب في الأقوال فهو ضال وان الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه) . (١٩)

ولقد وشت كلمة «الأقوال» بذلك الدليل الساطع على الحقيقة الدينية الخافية على القوم والتي بدأت تتجلى في نفس ابراهيم .. تلك النفس التي أجرت حوارا داخليا فيه نظر واستدلال واستقراء لمفردات الكون المعبودة عند قومه .. وبيان فسادها وضلالها .. إنها تأفل . والاحتجاج بالأفوال في هذا المجال أقوى وأظهر (لأنه انتقال مع خلفاء واحتجاب .) .

وهذه الحلقة من القصة تبين لنا صورة لنفس ابراهيم وقد ساورها الشك في عبادة قومه . إنها نفس تميل إلى العزلة ، وتستقرىء في الليل مفردات الكون مثار التأمل والنظر . فالليل يسدل أستاره والكوكب يضيء فينجذب إليه ، ولكنه يفاجأ بأقواله وتتناجى نفسه داخلياً . كيف يكون الكوكب ربًا للخلائق ويغيب عنها ؟ .. وتتكرر التجربة .. فالقمر يسطع بنوره الرقراق ولكنه كغيره يمضي إلى أفوله المحتوم .

وكذلك الشمس الأكثر بهاء وضياءً تغمر الكون نوراً وسرعان ما تحتجب وتتبدل من حال إلى حال .. وتتناجى نفسه داخليا .. مرة وأخرى .. كيف يكون ربّاً للخلائق ويغيب عنها ؟؟

وهنا تدرك ابراهيم عليه السلام شرارة الايمان الحق بعد أن نظر في أمور الكواكب واستدل من أقوالها على أنها مخلوقات محدثة وراءها خالق واحد وهو خالق الكون كله ، هو الله الواحد الأحد .

ويستعيد ابراهيم نفسه بعد صراع داخلي ونظر عقلي .. فيطمئن

---

(١٩) نفسه ص٢٤ .

ابراهيم ويزول قلقه بعدما رأى الله في قلبه وعقله وفي الوجود من حوله !)[٢٠]

وهذا مشهد قصصي بلغ فيه الجدل حدًّا كبيراً .. والقصة تكشف عن موقف إبليس حين عصى ربه ورفض السجود لآدم متباهياً بأصله الناري ومعرضا بأصل آدم الترابي . إنه يجادل من أجل الدفاع عن نفسه ويقف متحدياً في ضلال وإضلال ويجاهر بالصد عن سبيل الله .. في جرأة لا يفعلها إلا كل ضال عن سبيل الله .

قال تعالى :

﴿ولقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين . قال مامنعك الا تسجد إذ أمرتك ، قال أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين . قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبَّر فيها فاخرج إنك من الصَّاغرين . قال أنظرني إلى يوم يبعثون . قال إنك من المنظرين . قال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم . ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين . قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين﴾[٢١] .

.. هذا موقف جدلي بحت أخذ شكل القصة واعتمد على الحوار اعتماداً كبيراً .. إن جوهر الجدل هنا هو المقارنة بين ابليس وآدم .. تلك المقارنة التي ملكت على ابليس مداركه وأغشت حقده ، ثم يأتي التكريم لآدم والبشر جميعاً ، على أن التكريم في معناه العميق كشف عن تحقير وصم به إبليس واتباعه . ولقد كشف الحوار عن طبع

---

(٢٠) نظرات في قصص القرآن ص١ ص١٣٠ ــ ١٣١ .
(٢١) الأعراف ١١ ــ ١٨ .

إبليس الضال المضل وعن شخصية الحاقدة المترصدة ، كما أوضح الحوار الغرور الذي أصابه وأدار عقله وجعله لا يستسلم لأمر الله وقدره .. بل وصلت الشخصية إلى قدر كبير من المحاجة والتحدي .. وكلها صفات أخلاقية مذمومة .. أوحت بها القصة وكشف عنها الجدل والحوار الدائر في القصة .

لقد جاء الأمر إلى الملائكة بالسجود تكريماً لآدم فأطاعوا وسجدوا ، ورفض إبليس في إباء حاقد ويسأل عن المانع الذي منعه من السجود .. والله أعلم بما منعه .. ولكن السؤال يحمل التقريع والتوبيخ والاهانة (ولاظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصلة وازدرائه بأصل آدم ، وأنه خالف ربَّه معتقدا انه غير واجب عليه لما رأى أن سجود الفاضل للمفضول خارج عن الصواب)[٢٢]

ويأتي الأمر بالطرد من رحمة الله والهبوط من السماء التي هي مكان للطائعين والمتواضعين . ولقد خرج صاغراً مهاناً للتكبر الذي حصل منه والعصيان .

ويستمر الجدل الحواري حول الإغواء والترصيد والصد عن سبيل الله .. وطلب ابليس من ربه أن ينظر حتى القيامة ، وأجيب إلى استنظاره الذي طلبه وذلك للحكمة العليا التي أرادها الله سبحانه ولما في ذلك من ابتلاء العباد ، وحكم الاجابة هنا لما طلبه إبليس ﴿**حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده**﴾[٢٣]

والموقف الجدلي هو تمهيد لبدء قصة البشرية . لقد أعطى الله سبحانه كل شيء خصائصه ووظائفه وهدى إلى أدائها عند خلقه (وان

---

(٢٢) الكشاف جـ٢ ص٥٤ .

(٢٣) الكشاف جـ٢ ٥٥ .

الترقي في تاريخ الانسان ، كان ترقيا في بروز هذه الخصائص ونموها وتدريبها واكتسابها الخبرة العالية)[٢٤] وكان ميلاد الانسان بهذا التكريم الذي أعلنته الآيات . ولقد كشف الموقف الجدلي ثلاثة أنماط من الخلق : نمط يتسم بالطاعة والتسليم وهم الملائكة ، ونمط آخر يتسم بالعصيان وهو إبليس ونمط ثالث وهو الانسان . ولكن الموقف القصصي أعطى لابليس مساحة طويلة نسبياً .. لنتعرف من خلاله على عدو الانسان الأكبر .. وعن خصائص طبيعته التي اتصفت بالشر الأصيل ، ولقد صور الموقف المعاني العقلية والحركات النفسية تصورا تشخيصياً ..

كما أوضح الموقف أن مشيئة الله ـــ وقد أجيب ابليس إلى طلبه ـــ اقتضت أن يترك الكائن البشري يشق طريقه بما ركب في فطرته من استعداد للخير والشر وبما وهبه من عقل راجح .

(لقد جعل الله سبحانه لابليس وقبيله فرصة الأغواء ، وجعل لآدم وذريته فرصة الاختيار وتحقيقاً للابتلاء ..)[٢٥]

.. ولاشك أن ابرز صور الجدل في القصة القرآنية هي الصور الجدلية القصصية التي دارت بين الأنبياء والرسل وبين أقوامهم حول التوحيد ونقاء العقيدة والموضوعات تكاد تكون واحدة في هذه القصص ، فضلا عن وسائل الأنبياء في الدعوة بل إن العبارات الداعية إلى التوحيد وبيان أن الله واحد لا شريك له خلق السموات والأرض وأنعم على الناس بنعمه الظاهرة والباطنة .. وهو الذي يحيي ويميت وإليه الأمر .. هذه العبارات القرآنية تكاد تكون متشابهة في اللفظ والنظم .. ذلك لأن المنشأ واحد والدعوة واحدة والوسيلة واحدة في

(٢٤) الظلال جـ٣ ١٢٦٤ .

(٢٥) نفسه ١٢٦٧ جـ٣ .

أغلب الأحوال ونتيجة الصراع والجدل واحد .. وهو نصر المرسلين واتباعهم والعذاب الشديد للكافرين المكذبين .

وهي صور قصصية تكشف ماكان يحدث لمحمد ﷺ مع قومه .. وتؤازره في مواقف الصراع والجدل والدعوة إلى الاسلام ، وتبشره بنصر الله الذي لا يغيب عن أنبيائه والمؤمنين من أقوامهم .

والجدل في هذه القصة يدور حول الرسالة الدينية التي حملها الرسول إلى القوم . وهي رسالة دينية تواجه بالاعراض والصد والانكار الشديد لها ، ولنبوة النبي ورسالة الرسول .. كما دار الجدل حول القيم الأخلاقية والمعايير السلوكية التي كانت شائعة عند الأمم .

ولنأخذ نموذجاً يوضح ذلك ..

قال تعالى :

﴿.. وإلى مدين أخاهم شعيباً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . وياقوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقيَّة الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا مانشاء إنك لأنت الحليم الرشيد . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما إريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب . وياقوم لا يجرمنكم شقاقي أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد . واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود . قالوا يا شعيب مانفقه كثيراً مما تقول وإنَّا لنراك فينا ضعيفاً

ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز . قال يا قوم أرهطي أعزّ عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط . ويا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه ومن هو كاذبٌ وارتقبوا إني معكم رقيب . ولمَّا جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منَّا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾(٢٦) .

«إن القصة القرآنية من أغراضها الدينية أنها ترسم النموذج الكامل للمعاملة الحسنة والسلوك القويم . فضلا عن دعوة التوحيد غرضها الأكبر والأعظم . ولكنها بينت مع هذا أن دعوة الأنبياء دعوة ـــ مع التوحيد ونقاء العقيدة ـــ إلى الخير وصلاح النفوس وحسن المعاملة وتقويم المشاعر وتهذيب الأخلاق والتحذير من إفساد الحياة وتخريب النفوس .

وإذا وردت هذه المعاني في شكل قصصي تغلغلت إلى النفوس .. وقصة شعيب مع قومه نموذج للقصة التي تضمنت هذه المعاني وأبرزتها ، كما أنها نموذج لسياق الجدل والحوار في سبيل تحقيق وإشاعة هذه المعاني جميعها .

ولقد تضمنت القصة موقفين جدليين كبيرين : الأول الموقف الجدلي حول التوحيد ، جوهر الرسالة ومقصدها العظيم **﴿يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ...﴾** ومن خلال هذا الغرض الديني الكبير دعا شعيب قومه إلى قيم اخلاقية ترتبط بهذه الدعوة الكلية ، وحياتهم لاتسير وفق نظامها إذ يفتقدون هذه القيم الأخلاقية التي هي أساس نظام الحياة ككل ..

---

(٢٦) سورة هود ٨٤ ـــ ٩٤ .

وذلك هو المحور الجدلي الثاني الذي دار بين شعيب وقومه ـــ الدعوة إلى الوفاء في الكيل والميزان . ويبرز هنا القدوة حيث وضح شعيب لقومه أنَّه لا يرتكب شيئاً ينهي قومه عنه . وإنما هو يأمرهم بما يأمر به نفسه وهو حين يأمرهم بالتوحيد وبترك البخس في أموالهم وموازينهم إنما يريد إصلاح الأمر مااستطاع إلى ذلك سبيلا .. ويتبع شعيب هذا النصح بالتحذير وضرب نماذج من الأمم السابقة حق عليهم العذاب لعصيانهم وضلالهم .

وفي مجال جدل شعيب مع قومه أبرز السياق القصصي مجاملة القوم له من أجل جماعته ورهطه .. والقصة بما دار فيها من جدل حول التوحيد والأخلاق تذكرنا بموقف الرسول ﷺ من أهل مكة حيث واجهوا الرسول بالنكران والأذى ، واستمروا في عنادهم وضلالهم «وممارساتهم الضالة في أمور البيع والشراء والانجاز .. وكان ايراد القصة إيناساً للرسول ومؤازرة له وتسرية للمسلمين عن سوء المعاملة التي يلقونها من كفار قريش وبيانا للمسلك الخاطيء الذي يسلكه كفار قريش ..

ولقد غلب على الموقف الجدلي بين شعيب وقومه عنصر الحوار ، حيث أعطى الحوار النماذج المتباينة للشخصية الداعي ـــ شعيب ، وشخصية القوم ـــ مدين فشعيب رسول أمين على الرسالة يدعو إلى التوحيد ويستخدم مفردات الحياة التي يعيشونها فهو منهم ، ويعرف غناهم وعدم حاجتهم إلى البخس في الكيل والميزان . ويحذرهم مغبة هذا الاصرار على الضلال والكفر ، وهو الرجل القدوة الذي يجب أن يقتدوا به .. ثم هو يستقرىء التاريخ ليعطيهم العظة والعبرة وليقنعهم بأدلة برهانية لا تحتمل العناد أو التكذيب .. حتى يأتي تحذيره وتخويفه لهم مقنعا «أمَّا القوم فقد أصروا على العصيان وسخروا به

وبدعوته .. وانكروا منه أن يدعو هذه الدعوة ، ويلتمسون له العذر في رهطه الذي هو منهم .. وأصروا على مايفعلون . في غلظة نفس ، وجمود وجدان ، فحاق بهم العذاب الشديد ولقد رسم الحوار معالم الشخصية بالتعبير عن المواقف والصراع المشتجر (على طريقة الحكاية عنهم ، ونقل أقوالهم نقلا أمينا لا مبالغة فيه ولا افتعال ، فصاغ معانيها على مايقتضيه أسلوب اعجازه .. حتى يكون الاعجاز البياني للأقوال المحكية إعجازا للقرآن لا لتلك الأقوال)[٢٧] وفي هذا المجال الاعجازي يقول الزمخشرى في فائدة الأمر والنهي الذي ورد في مطالبة شعيب قومه بالوفاء بالكيل والبعد عن بخس الناس أشياءهم .. (نهوا أولا عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان لأن في التصريح بالقبيح نعيا على المنهى وتعبيرا له ثم ورد الأمر بالايفاء الذي هو حسن في العقول مصرحا بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه وجىء به مقيداً بالقسط أي ليكن الايفاء على وجه العدل والتسويه من غير زيادة ولا نقصان ؟)[٢٨]

ولا شك أن الحوار يثري الجدل في الموقف القصصي ويحيى المشاهد المرسومة في دقة متناهية ويصور الانفعالات تصويرا دقيقا كما يحمل الاقناع والتأثير .. ومن ثم ارتبط الجدل بالحوار ارتباطا وثيقا ، فكشف عن نبل المقصد والترفق في الخطاب من جانب الرسل وعن لجاجة الخصوم وسوء مخبرهم .. وعنادهم ومكرمهم من جانب آخر .

---

(٢٧) سيكلوجية القصة في القرآن ص٤١١ .
(٢٨) الكشاف جـ٢ ص٢٢٨ .



الفصل الثالث

٣ ــ مواءمة القصة لمراحل الأحداث ولمواقف الدعوة



مواءمة القصة القرآنية لمراحل الأحداث ولمواقف الدعوة

القصة القرآنية ــ وهي عمل فني رائع ــ وسيلة هامة ومؤثرة من الوسائل القرآنية الكثيرة التي تحقق الأغراض الدينية وتبرز الأصول الرواسخ في العقيدة الاسلامية والتي احتواها القرآن الكريم بحكم كونه الدستور الخالد الذي ينظم حركة الحياة للانسان في الدنيا والآخرة .

والقرآن الكريم ــ الوحي الذي نزل على رسول الله ﷺ ــ كتاب دعوة إلى الله ، وإلى الوحدانية ، وإلى الحق .. في المقام الأول ، ولما كان هزّ الوجدان وإثارة العاطفة الشعورية مدخلا وجدانيا إلى ترقيق العاطفة وربطها بالشعور الديني الفياض الذي هو فطرة عميقة في النفس البشرية .. فإن القصة تصبح في هذا المجال عاملا مثيرا ومؤثرا في نفس الوقت ، وتصبح وسيطا تربويا رائعا للتأثير في الذات ، وفي تطهير النفس من المشاعر الدخيلة على الفطرة البشرية . ولقد تلازمت القصة مع الانسان منذ بدأ يعي مدركات الحياة ومفرداتها ، حتى أضحى ميل الانسان إلى القصة أو الحكاية أو الخبر المثير ــ سماعا أو قراءة ميلا يكاد يكون فطريا .. ومن ثم تكون الدعوة عن طريقها أكثر نفاذا وأعمق تأثيرا .

وفي هذا المجال ــ مجال الدعوة ــ الدعوة إلى الاسلام ومواجهة طواغيت الكفر ــ فإن القرآن الكريم أعطى للقصة مميزات خاصة تصل بها إلى الكمال في المعنى والمبنى ــ

وتلك الصفات التي تبرزها القصة القرآنية وتتميز بها في ذات الوقت .. تتمثل في حمل لواء التوجيه والتعليم والوعظ والارشاد والاخبار ، والنصح والوعد والوعيد ، ووصف الجنة والنار وصفا دقيقا ومباشراً في الآن نفسه ــ مما جعل القصة القرآنية ذات دور حاسم

وفعال في تعليم وتغيير وتطوير المدركات الحسية ، والقيم الدينية ، والعواطف البشرية .. إلى ماهو أفضل وأحسن ومع ذلك فقد احتفظت بفنيتها في قوة واقتدار ..

ولقد ساهمت القصة القرآنية في الاعلام عن الاسلام — خاتم الأديان ، إعلاماً كاملا ، حيث وضحت وحدة الأديان ، وبينت أن الدين واحد .. وان الله واحد ، وان وسائل الأنبياء في مواجهة اعدائهم وأعداء الدين واحدة .. كما وضحت أن النصر في النهاية لكلمة الحق ولأنبيائه ورسله ، وأن الله ينصر من ينصره ، والله غالب على أمره ..

تلك الوحدة الكاملة بين الرسل ، والمسلمون يسمعون ويتلقون قصص الأنبياء واتباعهم مدى المساندة ، والتثبيت التي تقوم به القصة وهي تقص هذه الأنباء والأخبار عن الأمم السابقة ، كما أنها تزرع الأمل في قلوب المستضعفين من المسلمين في بداية الدعوة الاسلامية ، وتلوح بغض الأمل الذي يثمر نصراً ، وانتصاراً ، وتبشرهم بحياة جديدة وعالم جديد تكون الكلمة فيه لله ، والغلبة فيه لمن ينصرون الله ويؤيدون رسوله ﷺ .

ومن خلال ذلك يعرف المسلم أمور الدين ، وتحيط مداركه بحركة التاريخ الصحيحة التي هي انتماء إلى الله ، ودفاع عن دينه ، وتغرس فيه القيم الجديدة والأخلاق الفاضلة والتي هي تصحيح لما هو سائد من فوضى في السلوك والخلق ، وإرجاعه إلى الله ، وإلى الفطرة البشرية السوية التي خلق الله الناس عليها . وللقصة القرآنية — أثر واضح وبليغ وحاسم التأثير في توجيه العقيدة وتصحيحها . ونبذ ماخالطها من ألوان الشرك ، كما لها الأثر القوي في تقويم السلوك ، وحسن المعاملة على المستوى الذاتي ، أو على المستوى العام .

ومدخل القصة إلى ذلك التوجيه والتصحيح والتقويم : هو إثارة الشعور الانفعالي الدافع إلى الفعل .. حتى يصبح للعامل الوجداني تأثيره ، ومن ثم يضحى مردوده الفعلي مردوداً سلوكياً ، وقيميا .. يتلاءم مع العقيدة ومع الدين ، ومع وصفية المسلم ، كحامل لدستور الاسلام الخالد ، وكحامل للأمانة التي ألقاها الله على عاتقه ، فيصبح أهلا لتحمل تلك الأمانة بمفهومها الخاص المرتبط بالدين الاسلامي ومفهومها العام المرتبط بوحدة الكون ولقد أدرك الرسول ﷺ ما للقصة من تأثير ، فسلك نهج القرآن الكريم في توظيف القصة من أجل تعميق مبادىء الاسلام في النفوس ، فالرسول يتخذ من القصة أسلوبا للدعوة — على تعدد أساليبها — يحمل قيم الاسلام ومعانيه . ولقد أدرك ﷺ ما للقصة من تأثير ، فكان يقص على المسلمين قصصا يضمنها القيم والأخلاق وشتى الموضوعات التي تتناول حياة المسلمين وتأثير الاسلام في نفوسهم ومعاشهم .

والرسول في ذلك ينطلق من ضرورة استغلال الإقبال على القصة كعنصر حيوي استجابة للمناخ الذي يطلب القصة ويطالب بها .. فضلا عن حاجة الانسان إلى القصة كعنصر ملازم له منذ الطفولة .

وكان رسول الله ﷺ حريصا على أن يتعهد أصحابه بالقصة يعظهم بها ويذكرهم . ولما كانت «الصفة» ملتقى ضيوف الاسلام في المدينة من الوفود أو المسلمين حديثا أو الفقراء الذين يأوون إليها ، وجد فيها الرسول ﷺ فرصة كبيرة يلتقي بالمجتمعين فيها فيحدثهم ويذكرهم بالقصص وغيرها[1] .

---

(١) القصص في الحديث النبوي ص٥٤ — ٥٥ .

ولقد اشتملت أمهات كتب الحديث على نصوص قصصية كثيرة .

ولقد نزل القرآن الكريم على رسول الله تنجيماً ، ولعل أحد أسباب هذا التنجيم مؤازرة رسول الله ، في جهاده ضد الكافرين وشد أزر المسلمين المستضعفين ، وتسلية رسول الله وإيناسه ، وهو يواجه الخطوب والأحداث .

ولا شك أن تثبيت قلب النبي ﷺ إنما هو رعاية من الله وتأييد لرسوله أمام تكذيب الخصوم ، ولقد تعهده الله جل جلاله بما يخفف عنه الشدائد ، فكان إذا اشتد الأذى عليه نزل القرآن تسلية له وتخفيفا .

ولقد كانت القصة القرآنية إحدى وسائل التسلية حيث تبيد مصارع الأمم الغابرة وهي تتحدى كلمة التوحيد وتصدر عن دين الله .. وتخبر تلك القصية الرسول باندحار أعداء الله وانهزامهم ، وأن مآل الكفار واحد منذ البدء وحتى النهاية .

ولا شك أن في تجدد نزول الوحي وتكرر هبوط الأمين جبريل بالآيات البينات التي فيها تسلية للنبي ﷺ وفيها الوعد بالنصر والحفظ والتأييد ، كان لها أعظم الأثر في تثبيت قلب الرسول لمتابعة الدعوة والمعنى في تبليغ الرسالة الإلهية لأن الله معه[٢] .

ولقد قص القرآن في مرحلة الدعوة الأولى قصص الأنبياء والأمم الماضية وبمجمل ما جرى من حوادث التدمير في ديار عاد وثمود وطوفان نوح ، وأثبت القرآن أن الصحيح والمفيد من هذه الأنباء هو ما ورد فيه وما أوحى به .

---

(٢) التبيان في علوم القرآن ص٣٤ .

قال تعالى : ﴿**تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا**﴾[٣] .

ولقد سايرت القصة مراحل الدعوة الاسلامية وتواءمت مع الأحداث والمواقف وبرزت عناصر القصة ــ حسب الضرورة الفنية والموضوعية ــ بما يخدم الحدث والمرحلة والمواقف المتجددة في الدعوة .

إن الدعوة المحمدية استمرت ثلاث عشرة سنة كلها إعراض من قومه عن الاستماع لقرآنه وصدّ لغيرهم عن الاصغاء له ، واضطهاد وتعذيب لتلك الفئة القليلة التي آمنت معه ، ثم مقاطعة له ولعشيرته ومحاصرتهم مدة غير يسيرة في شعب من شعاب مكة ، ثم مؤامرات سرية أو علنية على قتله أو نفيه[٤] .

وفي هذا الليل الحالك يتنزل القرآن الكريم ، وتقوم القصة القرآنية بدورها في ضرب الأمثال وبيان مآل الكافرين تثبيتا للرسول وللذين آمنوا معه .

ولقد ابرزت القصة القرآنية ــ والتي نزلت بمكة ــ أحداث الأمم السابقة حيث تعطي البديل الجزائي الذي يستحقه كفار قريش المعاندون لرسول الله والمعذبون للقلة المؤمنة التي تعاني وتتعذب في سبيل الاسلام والعقيدة .. إن القصة القرآنية تتلاءم وتتناسق مع المرحلة .. فتقوم برسم وتصوير النهايات الأليمة التي حاقت بأمم غابرة ، صدت عن دين الله ــ وهو المصير الذي سيؤول إليه كفار قريش .

---

(٣) سورة هود ٤٩ .

(٤) النبأ د. محمد عبدالله دراز ص٤٢ .

كان القرآن في مكة يقص على المسلمين من أبناء الرسل مايثبت فؤادهم ويعدهم الأمن والنصر الذي كان لمن قبلهم .

قال تعالى : **﴿إنَّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾**[٥] .

ولقد اهتمت القصة القرآنية بإبراز عنصر الأحداث .. في مجال الدعوة في مكة المكرمة .. وانطبق على القصة ما انطبق على القرآن المكي من جماليات في الأداء ، والايقاع ، والموسيقى وجرس الألفاظ ، والايجاز الموقع .. الذي يحدث الأثر المطلوب من تصوير الأمم الغابرة في لحظة التدمير ، ولحظة النهاية المفجعة .

ففي سورة الذاريات وردت الإشارات القصصية السريعة إلى النهايات التي حاقت بالأمم .. حيث جاءت النهاية متلائمة مع العظة والعبرة ومع تثبيت المؤمنين . كما فيها إشارة إلى تحقيق وعد الله الذي جاء في أول سورة الذاريات **﴿إنَّ ماتوعدون لصادق﴾** .

والقصص بهذه الصورة الاشارية الخاصة بالنهاية ، يهدف إلى تجريد القلب للعبادة ، وتخليصه من العوائق ، ووصله بالسماء عن طريق الايمان .. حتى يتحقق وعد الله بالنصر للمؤمنين الثابتين على العقيدة ، والصامدين للعذاب .

قال تعالى في مجال الاشارة إلى قوم لوط :

﴿قال فما خطبكم أيَّها المرسلون . قالوا إنَّا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لنرسل عليهم حجارة من طين . مسوَّمةً عند ربك للمسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين . وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾[٦]

---

(٥) سورة غافر ٥١ .

(٦) سورة الذاريات ٣١ — ٣٧ .

وسورة الذاريات مكية تقوم على تشييد دعائم الإيمان ، وتوجيه الأبصار إلى قدرة الله الواحد القهار ، وبناء العقيدة الراسخة على أسس التقوى والإيمان . وبدأت السورة بالحديث عن الرياح والسحب والأمطار والسنن الجارية والملائكة المكلفين بتدبير شؤون الخلق .. ثم تحدثت عن كفار مكة وبينت مآلهم حيث يعرضون على نار جهنم . وتحدثت عن وعد الله للمؤمنين ، من النعيم والكرامة في الدار الآخرة . وجاءت النقلة التالية متلائمة تماما مع جوّ السورة والظروف التي نزلت فيها والمرحلة الإعلامية الاسلامية التي كانت عليها الدعوة المحمدية ..

ولقد جاء الحديث بعد ذلك عن قصص الرسل وأممهم — وعن موقف الأمم الطاغية من الأنبياء وما حل بهم من العذاب والدمار — كقصة لوط ، وقصة موسى ، وقصة الطغاة المتجبرين من قوم عاد وثمود وقوم نوح[٧] .. وتلك القصص — كما قلت — إشارات سريعة للنهايات المؤلمة التي حاقت بالكفرة الطغاة .

وفي الآيات السابقة من القصة ربط بين قصة ابراهيم والرسل الذين بشروه بغلام حليم ، وبين نهاية وعذاب قوم مجرمين والمراد بهم قوم لوط ..

ولم يرد في الآيات اسم الرسول .. ذلك السياق لا يؤكد على شخص النبي هنا فثمة آيات كثيرات متوزعة على سورة القرآن تتحدث عن جهود نبي الله لوط في الدعوة إلى التوحيد ، والتمسك بمكارم الأخلاق والابتعاد عن فساد العقيدة وفساد المسلك الأخلاقي[٨] .

---

(٧) صفوة التفاسير جـ٣ ص٢٥٠ .

(٨) انظر سور الأعراف ، هود ، الحجر ، الشعراء ، النمل .

وجاء ارتباط قصة ابراهيم بقصة لوط .. لأن تلك الأحداث وقعت في حياة ابراهيم الخليل ، فضلا عن أن لوطاً ابن أخي ابراهيم . وكان قوم لوط قد ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم وهي إتيان الذكران من العالمين وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين .[9]

ولما كانت هذه الفعلة فاحشة ، تنفر منها الطباع السليمة وذوو الفطرة السوية فقد تكررت في عديد من سور القرآن الكريم ، حتى يظل للقصة المثلة في العالمين والعبرة التي يتعظ بها ذوو الألباب .

وربط قصة ابراهيم بقصة لوط إيحاء بأن العرب ــ وهم ينتسبون إلى ابراهيم . ولوط منه ــ لم يتعظوا بما حدث لأقوامهم من عذاب وتدمير ، وغضب من الله . فأدانوا أنفسهم بأنفسهم ، إذ كيف يؤمنون بنبي الفطرة ابراهيم ولايتعظون بما حدث ، ويظلون في كبرهم وعنادهم لما يدعو إليه محمد ، وهي دعوة تتلاقى مع دعوة ابراهيم ، فالمنبع واحد هو الله ، والدعوة إلى التوحيد واحدة .

ونهاية قوم لوط نذير لكفار قريش :

ولقد علم ابراهيم ــ في القصة ــ أن الرسل ماهم إلا ملائكة قد جاءوا في أمر خطير ، وهو إهلاك قوم لوط لما ارتكبوه من معاصٍ ، وحق على قوم لوط العذاب ، وأصبحوا عبرة بما أنزل بهم من العذاب والنكال . وأصبحت محلتهم نتنة خبيثة عبرة للمؤمنين الذين يخافون العذاب الأليم .

قال الامام الرازي .. (واختار تعالى ابراهيم لكونه شيخ المرسلين ،

---

(٩) قصص الأنبياء ابن كثير ص٢٦٨ .

وكون النبي ﷺ على سنته في بعض الأشياء ، وفيها إنذار لقومه بما جرى من الضيف ومن انزال الحجارة على المذنبين المضلين)[10] .

وتمضي الآيات في سورة الذاريات .. لتقص قصص الرسل مع الأمم الطاغية وفي كل ذلك .. تسلية للنبي وتثبيت لقلبه ، وتذكيره بانتقام الله من أعدائه وأعداء رسله المكرمين .

قال تعالى :

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين فتولى بركنه وقال ساحرٌ أو مجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم .

وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . وما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم .

وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتَّى حين . فعتوا عن أمر ربِّهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون .

فما استطاعوا من قيام وماكانوا منتصرين .

وقوم نوح من قبل إنهم كانوا قوماً فاسقين .[11] ...

كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسولٍ إلا قالوا ساحرٌ أو مجنون﴾[12]

في قصة موسى إشارة ، للنهاية الماحقة التي حلت بفرعون ، حيث عصى ربه وكذَّب بما جاء به موسى وادعى عليه كذباً وبهتانا بأنه ساحر ، أو بأنه مجنون ، فنزل عليه وجنوده العذاب ، حيث هلك بالاغراق ، وهو مليم لأنه أتى بما يلام عليه ويعذب .. من أجله .. وهو الكفر والطغيان .

---

(١٠) صفوة التفاسير جـ٣ ص٢٥٥ .

(١١) سورة الذاريات آيات ٣٨ ــ ٤٦ (١٢) الذاريات آية ٥٢ .

وذكر اسم موسى لا يفيد جديداً في صلب القصة فالقصة لا تتناول شخصية موسى وإنما تتناول نهاية الطاغية ، وإنما ذكر موسى إشارة موجزة لحمل الرسالة الحق ، التي كذّب بها فرعون وجنوده .

وتوضح الآيات بعد أن تنتهي من قصة فرعون ، قصة عاد وكيف أرسل الله عليهم الريح العقيم ، وهي ريح الدّبور ، تلك الريح المدمرة التي لا خير فيها ولا بركة فهي لا تحمل خيراً ، ولا تلقح سحابا ولا شجراً ، وإنما هي فقط للهلاك ولقد أتت الريح عليهم فما تركت شيئاً ، وبقي كل شيء كالهشيم البالي . وأخبر الله بعد ذلك عن هلاك ثمود حيث جعلهم الله آية وعبرة لمن يعتبر ولم يذكر اسم نبيهم صالح ، لأن الهدف هو ذكر ما أنزله الله على القوم الضالين ولقد منع الله قوم ثمود ثم انذرهم .. بعد عقرهم الناقة ثم استكبروا وجحدوا أمر الله ولم يمتثلوا له فأخذتهم الصيحة المهلكة ، وهم يرونها ويشاهدونها لأنها حلّت بهم في وضح النهار ، ولم يستطيعوا الهرب أو النجاة بل أصبحوا في ديارهم جاثمين .

كما أخبرت الآيات عن هلاك قوم نوح في إشارة سريعة ، وبينت أنهم استحقوا غضب الله لأنهم كانوا فسقة خارجين عن طاعة الله ، بارتكابهم الكفر والعصيان .

وكل ما ورد في هذه القصص إنما هو إشارات سريعة ، سيأتي تفصيلها في المواقف التي تستدعي التفصيل ، وإنما اكتفى القرآن بأن يسجل نهاية القصة لأنها هي الهدف والغرض ، إنها وعيد لكفار مكة ، بأنهم سيلاقون نفس المصير الذي لقيه المكذبون السابقون من الأمم الغابرة .

وجاء ذلك في قوله تعالى من نفس السورة ﴿**فإنَّ للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون**﴾ ومرمى الآية تجسيد لكل

قصص الأمم السابقة ، فإن للكفار الذين كذبوا محمداً ﷺ نصيباً من العذاب الذي أدرك أسلافهم السابقين ، وأن العذاب واقع لا محالة فعليهم ألا يتعجلوه .

ولقد بينت الآية الصفة التي كانوا يلصقونها بالأنبياء والرسل ، وهي صفة السحر ، والجنون ، حيث تهدف الآية إلى وحدة الرسالة السماوية ، ووحدة الوسائل التي كان يتبعها الرسل مع أقوامهم ، ووحدة النعوت التي نعت بها الرسل والأنبياء ، وفي ذلك كله تسلية لمحمد ﷺ فلا تحزن يا محمد حين يصفك قومك بالسحر ، أو الجنون فلست بدعاً في ذلك بين إخوتك من الرسل السابقين ، فلقد قال المكذبون من قبل لرسلهم مايقوله قومك الضالون .

ولما كان القياس مثالا يورد نفسه إيحاء ، فإن المصير يصبح واحداً ، والنهاية واحدة .

ولقد استخدمت قوى الكون في انزال العقاب على الأقوام الضالة ، والاشارة هنا توحي ـــ عبر المعنى العميق لدلالة وسيلة الهلاك ـــ أن الكون كله وحدة وأنه دائرة مكتملة ولما كان قطب الدائرة ومحور الكون هو الانسان ، فإن أي خلل في نقطة الارتكاز تعني انهيارا ما ، أو تصدعاً في أركان البناء . والبناء الكوني كله لله ، هو الذي أقامه ، وهو الذي يأتمر بأمره ، وهو الذي يقوم بالعقاب أو الاصلاح ليعيد وحدته وانسجامه ، إن الكون تيار يلفظ مايشوبه ليبقى له صفاؤه ، وانهماره . ومن ثم وضّح الفعل المباشر في إسناده إلى الله تعظيما وتشريفا . وتذكيرا ، بأن الله هو المصدر والصمد والقادر ، **﴿نرسل عليهم حجارة﴾** ، **﴿فنبذناه في اليم﴾** **﴿ارسلنا عليهم الريح العقيم﴾** ، **﴿فعتوا عن امر ربهم فأخذتهم الصاعقة﴾** .

إن التعبير يبين أن قوى الكون ، من يمّ ، وريح ، وصاعقة ، وطين

مسوّم ، قد سلطت في الوقت المقدر بالهلاك والدّمار . إنها كلها مسخرة بمشيئة الله وبنوٰاميسه ، فتؤدي دورها كأي جند من جند الله .

ولقد كان القرآن يعالج قضية العقيدة في المجتمع المكي بأن يخاطب فطرة الانسان ويستنقذها مما ران عليها من ركام ، ويصقل الحواس الفطرية من صدأ الاعتقاد الهابط ، ويفتح طاقات عديدة للنفس البشرية .. لتدخل الأشعة النورانية التي تضيء القلب وتنير الوجدان .

والقرآن المكي ــ والقصة إحدى آياته ووسائله ــ يتسم باللمسات المبدعة المحببة ، التي تنتفض بعدها المشاهد والمعاني أحياء في الحس والخيال .. وإذا كلُّ مكرور مألوف من المشاهد والمشاعر جديد نابض ، كأنما تتلقاه النفس أول مرة ، وكأنما لم يطلع عليه من قبل ضمير إنسان[١٣] والقرآن الكريم في مجال القصة يختار لقطات حية من الوقائع التاريخية ولا يثقلها بما هو قافه من الجزئيات والتفاصيل التي تصرف الفكر عن التدبر والاعتبار[١٤] وتلك الأحداث الموجزة إنما تلاءمت مع الدعوة في أول عهدها ، فجاءت القصة القرآنية وعرضت الأحداث في إيجاز شديد وبفواصل قصيرة وبجرس لفظي للوصول مباشرة إلى تحذير مشركي مكة .. ولقد لمسنا فيما سبق من تتابع قصص الأمم الغابرة ، كيف كانت الآيات قصيرة ، وكيف كان الرنين الصوتي منغما ، وكيف حمل ذلك كله قوة في التأثير والارهاب تنتقل من قصة إثر قصة أخرى .

ولا شك ان ارتباط القصة بالدعوة والموقف والهدف الديني ، يحدد وسيلتها للعرض ، حيث يبدو لنا التناسق واضحاً بين القول

---

(١٣) في ظلال القرآن مجلد ٢ جزء ٧ ص١٠١٦ .

(١٤) سيكلوجية القصة القرآنية ص٨٧ .

القصصي ، والموقف . وكل تلك المقاصد يوحى بها النص ، والنص هو الذي يحدد أسلوب العرض ..

ولقد برزت الأحداث القصصية ــ كما سبق ــ في مجال الوعيد ، والانذار والتهديد .. ولقد تلاءم ذلك مع بدايات الدعوة .

حتى إذا تطورت الدعوة ، وجاهد الرسول وصحبه لابراز خصائص العقيدة الاسلامية ، وحاور قومه حول الأصول الرواسخ من العقيدة ، وواجه القوم كأقوى مايكون ، كان القرآن معه يسانده ويشد أزره ويثبت قلبه ويؤنسه ويسليه ــ بالعبرة والعظة ــ بقص أنباء الرسل والأقوام السابقين ، وما حاق بهم من عذاب لكفرهم وضلالهم .

ولقد أنقضت ثلاثة عشر عاما في تقرير قضية العقيدة .. وترسيخها في النفوس ولقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة ، وأن يبدأ رسول الله ﷺ أولى خطواته في الدعوة ، بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله .

إن قصص القرآن التي نزلت بمكة قامت على الزجر والوعيد ، فأهل مكة عبدة أوثان ، طالت صحبتهم بها فقست قلوبهم وران عليهم الضلال والجحود فغلب على القصص في هذه الفترة (ذكر الأمم البائدة التي خالفت أمر الله ، وكذبت رسله ، فكان عاقبة أمرها وبالا وخسراً)[١٥] كما غلب عليه التنوع في عرض الصور أنواع العذاب مما يهز الوجدان ويقلل من العناد والاستكبار . ومن ثم برزت الأحداث بروزا واضحا وطغت على عناصر القصة الأخرى ، وجاءت سريعة خاطفة فوافقها وتنامى معها العرض القصصي من حيث

---

(١٥) مع القرآن الكريم دراسة مستلهمة ص٢٤ . على النجد ناصف .

الايجار . وتقسيم الفواصل ، والرنين الصوتي العاكس للموقف وللحركة ، بما يتضمن من تهويل وتنظيم وتخويف ، والتكرار أحد ملامح الاسلوب السردي في هذه المرحلة ، سواء جاء تكرار للأسماء المجردة أو للأقوام ، أو للنهايات .

قال تعالى ﴿**الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . كذبت ثمود وعاد بالقارعة ...**﴾(١٦)

فالتكرار يحمل تهويلا وتخويفا ، والانتقال السريع من الوصف إلى السرد يوصل المغزى ويبرزه ، حيث ان مصير الأقوام المكذبين هو هذا الهول الشديد الذي وضحته كلمة الحاقة ، وما في التكرار من إلحاح في المعنى فضلا عن استخدام الاستفهام لغرض بلاغي يصاحب المعني المراد من السياق .

ويتفرع من هذا العرض حديث حول النبوة ومادار حولها من خصومات ولجاج وجدل .. ومانتج عنه من صفات عديدة لحقت بالرسل وآذته .. كصفات السحر والكذب والادعاء والجنون وغيرها .. وهي صفات جاءت كرد فعل مهووس من جانب أهل مكة الوثنيين الذين طال عهدهم بالوثنية وتحجرت قلوبهم فلم تهتز لنداء ولم تعتبر بمصارع الأمم السابقة .

قال تعالى :

﴿**وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين . فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم ..**﴾(١٧)

---

(١٦) الحاقة ١ — ٤ .

(١٧) الذاريات ٣٨ — ٤٠ .

وفي الآية تصريح بالصفة التي وصف بها موسى عليه السلام وهي صفة السحر والجنون . وجاء التعبير ملائماً للهدف من ايراد هذه الاشارة السريعة إلى موسى وقومه ، حيث انتقل النص من الوصف السردي الموجز إلى ابراز النهاية وهو الغرض من القصة .. نهاية العذاب الذي حاق بهم وأغرقهم في اليم .. والتعبير تولى بركنه يوحي بالتكبر والغرور والاستهزاء .. وجاء الفعل (قال) ليسجل هذه الحالة الشعورية التي سيطرت على فرعون وهو يسمع دعوة التوحيد من موسى . ولا شك ان الرسول ﷺ قد سمع تلك الصفات تتردد على مسامعه ، ورأى نفس الحالات الشعورية التي تدمدم بالسخرية والغرور .. مما يؤكد ان القصة القرآنية وهي تشير إلى موسى وقومه ، تشير أيضاً إلى مايحدث لمحمد مع قومه الضالين .. الحالة واحدة .. وإن طال الزمان وامتد .

قال تعالى :

﴿والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وماغوى . وماينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى﴾(١٨)

بل إن أهل مكة قد نعتوه بالكذب تارة ، وبالجنون تارة أخرى ..

قال تعالى :

﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه ..﴾(١٩)

وقال تعالى :

﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ماهذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ، وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين﴾(٢٠)

---

(١٨) النجم ١ — ٤ .

(١٩) الفرقان بعض آية ٤ .

(٢٠) سبأ ٤٣ .

إن قصَّ الأنباء والأخبار فيه تثبيت للرسول وإدخال السكينة في قلبه ومؤازرة للمؤمنين المستضعفين ، وبيان للعظة والعبرة من سوء قال الذين كذبوا الرسول وعصوا ربهم .

ولقد تصدى القرآن الكريم لكل أنواع الجدل الذي ثار حول العقيدة والدعوة ، فقارع الحجة والبرهان بالبرهان وكشف دعاوي الكفار الضالة . والله غالب على أمره ..

وفي هذا الموقف الجدلي برز عنصر الحوار في القصة القرآنية ليتناسق مع السياق القرآني وليتواءم مع الموقف الجديد ، الموقف المشتجر حول العقيدة الجديدة التي يدعو إليها محمد ، والذي في دعوته ، تحطيم لعقيدتهم وإدانة لعقولهم .

ذلك ان عناصر القصة لا نجدها مجتمعة في القصة القرآنية .. فمن سمات (القصص القرآني ان العناصر المألوفة للقصة من أحداث وأشخاص وحوار وارتباط مكاني وترتيب زماني وعقدة .. لا نجدها مجتمعة في القصة القرآنية ، ولا موزعة توزيعاً يجعل لكل منها دوراً .. يختل بانعدامه توازن القصة ، لأن المقاصد التي يوحى بها السياق هي التي توجه .. أسلوب العرض[٢١] .

ومن ثم فالدعوة حين تتطور فإن عنصر الحوار يبرز في موضوعات كالوحدانية ، ورسالات الأنبياء والبعث كما ويعكس الحوار الشخصية المحورية وتأثيرها على مجالات الأحداث .

إن إقامة الحجة ، تستدعي الحوار والجدل ، وهو أمر موضوعي بحت يلتقي بوحدة الموضوع ووسيلته إلى توضيح هدفه .

وأطراف الحوار المشتجر في القصص يكون بين الرسل وأقوامهم

---

(٢١) سيكلوجية القصة في القرضان ص٩٣ .

أو بين المستكبرين والمستضعفين ، ويحكم الحوار تكرار كلمة قال ، أو قالوا .

والرسل يوجهون سير الحوار ويجددون أهدافه وغاياته ووسائله الوسيطة ومن ثم فإن اهتمام القصة يقل بشخصية الرسول في حين يتركز الاهتمام في الحجج والأدلة والبراهيم الدامغة .

وهذا الجدل المشتجر في القصص إنما يوحي بموقف تبادلي ، يساعد على تعديل التيار الجارف من المعارضين ، ذلك أن الناس بدأوا يدخلون إلى الدين الاسلامي ، وبدأت الأشعة تزيل عن النفوس ركامها ولكن الذين يخشون على أنفسهم تشتد معارضتهم ، وتحتد خصومتهم ، ويلجأون فيما يلجأون إلى الحوار فلعل فيه هاجسا يمنع تلك الأفئدة عن المضي وراء نور الحق .

ولنضرب لذلك مثلا قصصيا كنموذج لهذا الحوار الذي يستدعيه الموقف وتتطلبه مرحلة الدعوة الجديدة .

قال تعالى :

﴿فأتيا فرعون فقولا إنَّا رسول ربِّ العالمين .

ان أرسل معنا بني اسرائيل .

قال ألم نربِّك فينا وليداً . ولبثت فينا من عمرك سنين . وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين .

قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين . ففررت منكم لماَّ خفتكم فوهب لي ربِّي حكماً وجعلني من المرسلين . وتلك نعمةٌ تمنها علي أن عبدت بني اسرائيل .

قال فرعون وما رب العالمين .

قال رب السموات والأرض ومابينهما إن كنتم موقنين .

قال لمن حوله ألا تستمعون .

قال ربكم ورب آبائكم الأولين .
قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون .
قال رب المشرق والمغرب ومابينهما إن كنتم تعقلون .
قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين .
قال أو لو جئتك بشيءٍ مبين .
قال فأت به إن كنت من الصادقين .
فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين .
ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين .
قال للملأ حوله إن هذا لساحرٌ عليم .
يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون .
قالوا أرجه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين .
يأتوك بكل سحَّار عليم .
فجمع السَّحرة لميقات يوم معلوم . وقيل للناس هل أنتم مجتمعون . لعلَّنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين .
فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجْراً إن كنَّا نحن الغالبين .
قال نعم وإنكم إذاً لمن المقربين .
قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون .
فألقوا حبالهم وعصيَّهم وقالوا بعزة فرعون إنَّا لنحن الغالبون .
فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون .
فألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا بربِّ العالمين .
ربِّ موسى وهارون .﴾[٢٢]

الآيات الكريمة من سورة الشعراء ، وهي سورة مكية ، وموضوعها

---

(٢٢) سورة الشعراء آيات ١٦ ــ ٤٨ .

هو موضوع السور المكية .. وهو العقيدة ، التي تتضمن الايمان بالله واحداً لا شريك له ، والخوف منه والايمان بالبعث ، والتصديق بالوحي .

.. والسورة توضح منذ البداية موقف المعاندين المكذبين ونهايتهم ، وفيها تسلية للرسول ، وطمأنة للمسلمين .

والقصة هي الخير الكبير الذي شغل جسم السورة .

ويغلب على القصص جو الإنذار والتكذيب والعذاب الذي يتبع التكذيب . والآيات الكريمة بذلك تكون قد وضحت الأمر لمشركي قريش والمكذبين برسول الله ﷺ ، وأوحت بالمصير الذي ينتظر المكذبين .

والآيات التي أمامنا إنما هي حلقة من حلقات قصة موسى عليه السلام (وهي حلقة مقسمة إلى مشاهد استعراضية بينها فجوات بمقدار مايسدل الستار على المشهد ، ثم يرفع عن المشهد الذي يليه ، وهي ظاهرة فنية ملحوظة في طريقة العرض القرآنية للقصة)[٢٣]

وهذه المشاهد قد عرضت في سور سابقة ولاحقة لهذه السورة .. ولكنها حين تعرض تلائم الجانب الذي يناسب ذلك المشهد أو ذاك .. مع التركيز على جزئية معينة دون الأخرى .. حتى يتم التناسق في السياق وفي الموضوع .

.. فمواجهة موسى لفرعون والسحرة ، وغرق فرعون .. وردت في سور البقرة ، والأعراف ويونس والاسراء ، وطه وغيرها ، حيث توزعت قصة موسى وتنوعت مشاهدها ..

ولكن هذه الحلقة من القصة وفي سورة الشعراء .. تختلف من

---

(٢٣) في ظلال القرآن ص٢٥٨٨ جزء ١٩ مجلد (٥) .

حيث أنها تركيز واضح على مشهد الجدال بين موسى وفرعون حول وحدانية الله سبحانه ووحيه إلى رسله . وهو موضوع الجدل الذي يدور بين محمد ﷺ ، وبين المشركين .. وسجلته السورة في أولها وآخرها .. فجاء الجدل متلائما ومتناسقاً مع الموضوع ، ومع الغرض من القصة .

والحوار من مكونات القصة ومن دعائمها الأصيلة ، ولا تخلو قصة منه ، سواء جاء واضحا في جملة الحوارية ، أو متضمنا في السياق ، أو محكيا عنه أثناء السرد ، فهو مظهر بارز للعملية القصصية .

واستعمال الحوار في مثل هذه المواقف ، كمواقف الدعوة ، نقلّ «للسرد والوصف القصصي إلى فاعلية جديدة في الأداء والتأثير ، وهي فاعلية المواجهة والجدل والنقاش ، مما يترتب عليه ، إبراز الجانب الفكري موضوع الحوار ، فضلا عن إثارة المشاعر والانفعالات المصاحبة لموقف النقاش .

ولا شك أن الأداء التعبيري في الحرار يختلف من موقف إلى آخر حسب مايقتضيه السياق ، والموقف ، وموضوع الحوار .

ومادار بين موسى عليه السلام وفرعون قصة حوارية من الدرجة التي يصل فيها اعجاز الحوار مداه .. فالحوار هنا هو سيد الموقف القصصي .

بدأ الحوار أثناء تلقي أمر الدعوة وتحمل عبء الرسالة .

وتضافر الحوار مع المبدأ الاعتقادي في موقف المجادلة مع فرعون .

وانتقل إلى جانب انفعالي بحت وهو يعكس موقف فرعون والسحرة ، ثم تنتهي القصة الحوارية المكتملة البناء .. بالحوار الذي يدل على الاعتراف بالعقيدة ـــ والايمان بالوحدانية .. وذلك من قبل السحرة ..

لقد قام الحوار بذلك كله ، فوضح لنا معالم الشخصية ، وابرز مجالات الاعتقاد وجسد مواقف الكبر والمعاندة .. وانطلق بالحدث من هوادته الأولى إلى حدته وتأزمه .. ثم قام بعملية الكشف القلبي حين يبين تغيّر المواقف وتبدل الحالات .. والأشخاص من الكفر إلى الايمان ..

وهذه القصة بدأت من الحوار وانتهت به .. فهي قصة دائرية .. مكتملة البناء الفني تماما ..

تبدأ القصة بحوار يوضح اختيار موسى رسولا إلى بني اسرائيل ، وتخوف موسى من عبء هذه الرسالة التي تحتاج إلى فصاحة في الاعلام عنها ومن ثم يطلب من ربه مؤازرة أخيه هارون ..

ثم يتلقى موسى أمر ربه بالدعوة ، والذهاب إلى فرعون ، حاملا وهارون رسالة التوحيد إلى فرعون ، وطالبا منه خروج بني اسرائيل معه .

ويتضح الأمر .. فموسى لم يكن رسولا إلى فرعون وقومه ليدعوهم إلى دينه ويأخذهم بمنهج رسالته . وإنما كان رسولا إليهم ليطلب إطلاق بني إسرائيل ليعبدوا ربَّهم كما يريدون .. وأرسل الله إليهم موسى لينقذهم من ظلم فرعون ويعيد تربيتهم على دين التوحيد[٢٤] .

لقد بين الحوار الذي افتتحت به القصة ، مشهد التكليف .. وهو مشهد يتضح فيه الضعف البشري ، وحاجة الانسان ـــ ولو كان رسولا ـــ إلى المؤازرة والمساندة ، وهو إيجاد إرشادي إلى مؤازرة الله لرسوله محمد ﷺ ومساندته له ، من حيث أن الرسل جميعا يغترفون من نبع واحد . وهو التوحيد .

---

(٢٤) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ١٩ ص ٢٥٩٠ .

وثمة فجوة بين المشهد الأول والمشهد الذي يليه . حيث انتقلت القصة إلى ساحة الجدل والفعل مرة واحدة ، دون تمهيد .. فنحن لا نعرف ماذا فعل موسى وهارون قبل أن يذهبا إلىَ فرعون .. لأن القصة القرآنية قصة اختيارية إن صح التعبير .. قصة انتقائية .. تنتقي المشاهد وتتضافر فيما بينها ، وتبقى الفجوة لتثير الذهن ، وتلعب بخيال القارىء أو المستمع . إنها ليست قصة تقليدية .. تهتم بالمدى الطولي السببي ..

ثم ينقل لنا الحوار ، دهشة فرعون . مما يدعو إليه موسى .. ويصحب الدهشة نوع من المنّ ، يستدعي ذكر فضائل فرعون على موسى .. من جهة نظره كحاكم طاغ .. أي ابراز عنصر الزمن الماضي على ساحة الفعل الحاضر .

والحوار أوضح الدهشة ، ولا تأتي الدهشة القوية بتأثيرها إلا على قلب انسان اطمأن إلى مايفعله .. ورأى صوابه .. فحين يأتي واحد من الناس .. ليزلزل الطمأنينة المستقرة — ويكون ذلك الواحد ربيباً تربى في حجرة .. تصبح الدهشة مفتتحا عاقلا لحالة الانفعال الغاضب التي اجتاحت فرعون .. وكأنما يتحدث قائلا — أين موسى الذي ربيته يخرج هذا النداء !!

ولذلك يذكر فرعون .. موسى قائلا له .. لقد ربيتك وليداً ونشأتك في قصري . تحوطك الرعاية والعناية ، ثم هربت حين قتلت المصري ، وأنت جاحد بنعمي عليك .. أيكون جزاء التربية ، أن تخالف ديانتنا وتخرج على الملك الذي ربَّاك ورعاك ؟ .

.. وتلك الجزئية من الحوار وإن كانت تثير الدهشة والتعجب عند فرعون ، فهي تكشف من خلال الدلالة اللفظية مراد فرعون .. كمحاولة لاستقطاب موسى ، وامتصاص دعوته .. تخيلا أن تكون

حالة نفسية طارئة .. ولجأ لتحقيق ذلك إلى أمور منها ـــ التذكير بنعم فرعون على موسى .. والتذكير مصاغ في أسلوب إنشائي أداته الاستفهام المنفي ، الذي يحمل شحنات نفسية تدل على التعجب .. والاستنكار .. وهو مايمكن أن يوضح معنى التودد الكامن في هذا الحوار المبدئي ..

ولعل ذلك التودد الكامن في نبرة الأداء .. أن يضعف من موقف موسى .. ثم ينتقل السياق الحواري من جانب فرعون إلى رفع التعجب درجة أعلى .. فيوقفه على فعلته .. وهي مقتل المصري .. وذكر الأمر بكلمة فعله .. لما تحملها من دلالة البشاعة .. وهو يقصد ذلك قصداً .. فكيف تقتل بالأمس وتأتي اليوم داعياً إلى رب العالمين .. أو لم يكن رب العالمين موجوداً بالأمس ؟ ..

إن دلالة هذا الجزء من الحوار لتكشف عن دراية واضحة بالنفوس .. يتميز بها فرعون .. حاول أن يستثمرها لاضعاف موقف موسى ، أو إبعاده من معتقده الجديد ... ويدرك موسى ما وراء كلمات فرعون .. فيرد عليه قائلا في ثبات .. لا اهتزاز فيه ولا ضعف ، ولا تأثير بما ذكر من ماضيه ..

ولقد فعلت تلك الفعلة حقيقة .. ولكنني فعلتها وأنا جاهل بها .. أخذني «اندفاع العصبية لقومي لا اندفاع العقيدة التي عرفتها اليوم بما أعطاني ربي من الحكمة»[٢٥] .. وفررت منكم لأنني أعلم طغيانك .. ثم وهبني الله الحكمة .. ويواجه موسى فرعون في ثبات وقوة ويبادله الحجة بالحجة .. بل يدحض حجته الكبرى .. حجة التربية والكفالة .. فيعلن موسى أن تربيته تلك لم تكن إلا نتيجة استبعاد

---

(٢٥) في ظلال القرآن . نفسه ص٢٥٩١ .

فرعون لبني اسرائيل .. ولقد جاء لفظ (عبّدْت) بتلك الصيغة لبيان مدى القهر والظلم الذي مورس على بني اسرائيل حتى يظلوا طوع فرعون ورهن استعباده .. اللفظ يشي بدلالات القسوة والتوحش واللا إنسانية .. كما يوحي بحركتين ، حركة فاعلة قوية وظالمة جاءت من قبل فرعون وحركة ضعيفة مستخذية جاءت من بني اسرائيل .

ولذلك جاء رد موسى غاضباً يحمل في طياته حزن السنين الطوال وهو يرى قومه عبيداً لفرعون .. ردّاً خرج ناقماً من مخزون الألم .. عبّدت .. كم هو ثمن غالٍ ذلك الذي دفعه بنو اسرائيل جراء تلك النعمة .. نعمة التربية والكفالة في قصر فرعون . ويرفع موسى صوته يواجه فرعون ليصحح المفهوم المغلوط ..

إنَّ ما تعده نعمة ليس إلا نقمة باهظة الظلم والعدوان ..

يقول ابن كثير (وهذه النعمة التي ذكرت .. «التربية والاحسان إليه» .. من أنك أحسنت إلىّ وأنا رجل واحد من بني اسرائيل ، تقابل ما استخدمت هذا الشعب العظيم بكماله ، واستعبدتهم في أعمالك وأشغالك[٢٦]

وينتقل الحوار إلى مجال آخر .. وهو مجال جدلي بحت ، حيث تصبح البراهين هي وسائله ، وطرائقه إلى الإقناع ، أو التعجيز . ذلك أن موضوع الجدل هنا يدور حول الوحدانية .. وهو موضوع يصيب فرعون في الصميم من حيث كونه يدَّعي الألوهية ويفرضها على شعبه .

ويبدأ الحوار الجدلي بتساؤل من فرعون يحمل دلالة السخرية والتجاهل ، ولعل أداة الاستفهام (ما) التي يستفهم بها عن الأشياء ،

---

(٢٦) قصص الأنبياء ابن كثير جـ٢ ص٣٢ .

تعطي هذا المعنى ، وتعكس التصور الخاطيء الذي يحمله فرعون عن الله .. فهو يعتبره شيئاً ، ويتساءل أي شيء يكون هذا الرب الذي تدعي أنه رب العالمين .

ويواجه موسى ، فرعون في ثبات قائلا إنه رب الكون كله ، من سمائه وأرضه ومابينهما ، (وهو المتصرف فيهما بالإحياء والاعدام)[٢٧] ..

وذلك الرد البرهاني يحمل سخرية دامغة لفرعون .. ولا بد أن فرعون قد أدرك تلك السخرية ، وهو الأديب الفطن ، إن موسى يسخر منه كما سخر هو منه .. ولكن سخرية موسى تترقرق عبر المعنى .. الذي يتأكد بالمقارنة ، ووضع السياق القرآني . فحين وصف موسى الله جلّ وعلا بهذه الصفات المشتملة على الربوبية ، حمل ذلك الوصف .. «استصغار مايدعيه فرعون مع بطلانه وتوجيه نظره إلى هذا الكون الهائل .. والتفكير فيمن يكون ربه»[٢٨] .

ومن ثم جاء انفعاله انفعالا شرطيا ، تبعا لإدراكه ذلك الاستصغار الذي أشار إليه موسى عليه السلام . ولأن فرعون لم يقو على ضبط انفعاله ، فلقد برزت سخريته حادة مباشرة ، لتدل على الغضب العصبي الذي سيطر عليه .. ذلك الغضب الذي يدل على العجز أمام مواجهة البراهين العقلية البحتة .

ويلتفت فرعون إلى من حوله من قومه على سبيل الاستهزاء ويقول ، ألا تسمعون مايقوله ، إنه لقول عجيب ، أسأله عن حقيقة الله ، فيجيب موسى بصفة من صفاته . ويهجم عليه موسى عليه السلام ..

---

(٢٧) صفوة التفاسير المجلد الثاني ص٣٧٧ .

(٢٨) في ظلال القرآن المجلد الخامس الجزء التاسع عشر ص٢٥٩٢ .

بصفة أخرى من صفات رب العالمين .. وهي صفة تمس فرعون ، ووضعه بين قومه ..

يقول موسى : إن الله هو خالقكم وخالق آبائكم من قبلكم ، فوجودكم دليل على وجود القادر الحكيم . ومافرعون إلا واحد من عبيد الرحمن .. «فالوراثة التي تقوم عليها ألوهية فرعون دعوى باطلة»[٢٩]

وينفعل فرعون .. ويرمي موسى بالجنون .. إذ كيف يصبر فرعون على تلك الاهانات من موسى ، وأمام قومه الذين يعتبرهم عبيده .

وانظر إلى دلالة لفظة «الجنون» المستخدمة في هذا السياق الحواري الانفعالي .. فلم يستخدم فرعون لفظة أخرى — وهو القادر على ذلك — لأنه يرى أن وصف موسى بتلك الصفة ، وسيلة نفسية — وإن كانت عصبية — ليذهب أثر مايقوله موسى ، لأن مايقوله طعنة لفرعون .

ولم يحفل موسى بانفعال فرعون أو باستهزائه ، وعاد إلى تأكيد حجته ، وهو وحدانية الله وربوبيته عن طريق دليل برهاني آخر .. وهو أن الله يطلع الشمس من المشرق ويجعلها تغرب من المغرب ، وهذا مشهد يومي معروض على الأنظار والأقوام ، ولا يستطيع أحد أن يدعي قدرته على تصريفهما .. وفي هذه الحجة برهان يوقظ العقول الغافية .. وهو أمر يخافه الطاغية كفرعون ، لأن الطاغي لا يخشى شيئاً كما يخشى يقظة الشعوب ..

«ومن ثم ترى فرعون يهيج على موسى ويثور ، عندما يمس بقوله هذا أوتار القلوب ، فينهي الحوار معه بالتهديد الغليظ بالبطش الصريح الذي يعتمد عليه الطغاة»[٣٠]

---

(٢٩) نفسه ص٢٥٩٢ . (٣٠) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ١٩ ص٢٥٩٣ .

ويعلو صوت فرعون لئن اتخذت إلها غيري فسألقينك في غياهب السجون . ولكن موسى عليه السلام يخرجه من ثورته في تلطف ..

وهنا تأتي إلى جانب آخر من جوانب الحوار يستخدم وسيلة أخرى من وسائل الانسان الادراكية ..

فالحوار مرَّ في ثلاث مراحل :

حوار ذاتي استخدم فيه المتحاوران المشاعر ، والانفعالات ، التي صاحبت الحديث عن الماضي ، والتذكير بالنِّعم ، أو بالتعبيد .

حوار عقلاني بحت ، كانت الحجج والبراهين هي الوسائط الداعية إليه .. وهو حوار جاء هادئاً عاقلا داعياً من جانب موسى عليه السلام ، وعصبياً غاضباً من جانب فرعون ..

والحوار المادي ، الحسي ، وهو جانب ثالث من جوانب الحوار الطويل الذي دار بين موسى وفرعون ..

فإذا كان مناط النوع الأول القلب ، ومناط الثاني ، العقل ، فإن مناط الثالث ، هو العين ، الأداة الادراكية المبصرة .. إنها تدعيم للعقل وترسيخ له .

يقول موسى ، أو لو جئتك بشيء مبين ؟ .. أفأنت منزل عقابك بي وتهديدك لي بالسجن ؟! ويحار فرعون أمام القوم ، ويؤخذ بهذا التحدي السافر .. فلقد وضعه موسى في مأزق وانتهى الأمر أن يتراجع ، حتى لا يبدو خائفاً ، ويلجأ إلى نفس الوسيلة التي سبق وأن لجأ إليها ، وهي التشكيك في موسى وقواه العقلية ـــ ومن ثم يوافق على مضض بعد إيحائه للقوم بأن موسى .. ليس هو بصاحب العقل الذي يعتد بحديثه .. **(إن كنت من الصادقين)**

ويرسم السرد القصصي الذي تخلل الحوار حكاية عن الفعل الذي تم .. يرسم صورة باهرة للموقف الثقيل الذي تتابعه العيون من كل

جانب ، وترتبط به القلوب ، ويتوقف عليه وجود فرعون نفسه ، وخروج بني اسرائيل ، وابراز الحقيقة الإلهية الواضحة .

ويلقى موسى عصاه فإذا هي ثعبان عظيم واضح كل الوضوح ، ثم أخرج يده فبدت بيضاء كغلقة البدر تتلألأ نوراً يبهر الأبصار ، لها شعاع يكاد يغشى الأبصار .

«وهذان هما البرهانان اللذان أيده الله بهما ، وهما العصا واليد .. ومع هذا كله لم ينتفع فرعون بشيء من ذلك .. بل استمر على ما هو عليه وأظهر أن هذا كله سحر وأراد معارضته بالسحرة فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم في رعيته وتحت قهره ودولته ..»[٣١]

ولما جاء السحرة طلبوا لهم أجزاً ومكانة ، ولبى فرعون طلبهم .

وتصف الآيات الكريمة المشهد العظيم الذي واجه فيه موسى السحرة الذين جاءوا من كل صوب ..

ويبدأ المشهد هادئاً واشياً باطمئنان موسى إلى الحق الذي معه ، فترك السحرة يبدأون عملهم وأعطاهم الدور الأول .. فيلقون حبالهم وعصيهم .. ويلقي موسى عصاه فإذا هي ثعبان عظيم يبتلع حبالهم وعصيهم .. ولقد أدرك السحرة حقيقة الموقف ، فما يفعلونه خداع ووهم وتصوير للشيء بغير حقيقته من باب الايهام ولكن مايرونه من موسى حقيقة باهرة ومؤكدة .

وها هو الدليل الحسي .. يعطي آثاره السريعة ، فيسجد السحرة لله رب العالمين ، وهم المأجورون الذين استؤجروا ليناصبوا موسى العداء ، ولكن البرهان الساطع والمعجزة الباهرة كانت فوق كل

---

(٣١) قصص الأنبياء ابن كثير ص٣٥ جـ٢ .

المهارة ، والرغبة في المكانة ، وتخويف فرعون لهم .. ولقد كان ذلك انقلاباً مفاجئاً له دوي القنابل ..

ولا شك أن هذا الانقلاب يتهدد فرعون ، ويتهدد ألوهيته ، وسيتحقق هذا التهديد أمام الجماهير الحاشدة التي جمعها لتشهد الصراع بين موسى ، والسحرة .

يقول ابن كثير : وكان هذا من تسخير الله تعالى ليجتمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة ..

ثم يأتي حوار جانبي بين فرعون والسحرة . وهو حوار يدور بين حركتين انفعاليتين ، الحركة الانفعالية الأولى ، جاءت كردّ فعل لما حدث .. وكان صاحبها فرعون . فعلا ، وغضب ، وهدد ، وأوعد ، والحركة الثانية جاءت كرد فعل لما حدث أيضاً .. ولكنها حركة قلبية مطمئنة واثقة ، وكان أصحابها هم السحرة .

ولقد وجه فرعون لهم تهديده في صيغة استنكار وتهديد .. ﴿**آمنتم له قبل أن آذن لكم**﴾ .. إن ذلك ليس إيمانا ، وإنما هو استسلام .. ولذلك عبر فرعون بقوله (آمنتم له) للدلالة على الاستسلام كما يتصوره هو . ولم يقل «آمنتم به» لأن ذلك يعني الايمان بحقيقة مايدعو إليه موسى وهو مايريد أن ينفيه بكل الحيل والوسائل .

ويصمد المؤمنون من السحرة لتهديد فرعون ، ويعلنون في رضى وطمأنينة بألَّا ضرر علينا في وقوع ما هددتنا به ، فلا نبالي به فمآلنا إلى الله ، ورجاؤنا كبير أن يغفر الله لنا ذنوبنا ، لأننا كنا المبادرين بالإيمان وبتصديق موسى .

وإن هذا المشهد الجانبي بين فرعون والسحرة المؤمنين ، ليملأ القلب غنى ، وذخراً ، حين تنسكب الطمأنينة عليه ، فيبدو نعيم

الدنيا إزاء ذلك النعيم حقيراً وتافهاً .

ولا شك أن للمشهد جلاله الباهر وإيقاعه العميق ... «فهو يربي به النفوس في مكة وهي تواجه الأذى والكرب والضيق ويربي به كل صاحب عقيدة يواجه بها الطغيان والعسف والتعذيب ..»(٣٢)

مما سبق نرى أن المقاصد الدينية والأهداف التي تكمن وراء القصة القرآنية هي التي توجه السياق التعبيري نحو عنصر فني معين من عناصر القصة لابرازه وتوضيحه .. ذلك لأنه العنصر الملائم للموقف ولمرحلة الدعوة وطريقة عرض العقيدة . وقد يتكرر هذا العنصر الفني في موقف آخر ، ولكن في سياق مختلف مما يستدعي أن يكون العرض مائلا إلى الايجاز أو إلى الاطناب أو إلى النهاية مباشرة لملائمتها للهدف الديني الذي سيق العنصر الفني تبعا له ..

وعرفنا مما عرضنا له ، أنه في مجال الانذار والعظة والوعيد ، برز عنصر الأحداث مثلا .. وفي مجال إقامة الحجة والجدل العقلي برز عنصر الحوار .

ويبقى هنا في هذا الجانب من الموضوع أن نلم إلمامة سريعة ، بعنصر الشخصية .

فالشخصية تبرز على ساحة العمل الفني ، فاعلة قوية مؤثرة ، كلما استدعى الأمر ، تثبيت الرسول وإيناسه ، وضرب المثل له ﷺ ، بموقف الرسل وهم يواجهون أقوامهم في ثبات .. فإذا كان عنصر الأحداث موجها إلى المعاندين من كفار قريش ..

وإذا كان عنصر الحوار ، وسيلة لعرض العقيدة في مجال التحدي والمكابرة ، فإن عنصر الشخصية ، موجه بالفعل إلى الرسول مباشرة ،

---

(٣٢) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ١٩ ص٢٥٩٧ .

ومن ثم جماعة المسلمين ..

وبروز الشخصية في القصة يعني أن القصة قد وصلت إلى مرحلة من مراحل الحسم .. فبعد الانذار والحوار ، لم يعد إلا الفعل ، ومن ثم جاءت الشخصيات وهي تعمل ، وتواجه ، وتقوم بالفعل . مما يجعلنا نطمئن إلى القول بأن هذا النوع من القصص الديني إنما جاء تعبيراً صادقاً عن وقائع المرحلة الأخيرة من الدعوة ، وهي المواجهة .

ومن ثم فإن هذه المرحلة تتجسد في القصة القرآنية حيث تكون الشخصية هي المحور الرئيسي ، ويرفدها العنصران السابقان ، الأحداث ، والحوار .. وقد يتلازم الحوار مع الفعل ، كما رأينا في موقف موسى وفرعون .. ويكشف عن الأفكار والمبادىء المتصارعة ، والناتجة عن المواجهة ، وكذا مردودها الانفعالي ..

وتبقى الشخصية في ساحة العمل الأدبي متفردة ، ومصارعة ، ومتحركة .. وقد لا يكون لها الوجود الأوحد ، بل قد يشاركها في الفعل شخصيات ثانوية .. لابراز التناقض ، أو التوافق في الفعل .. ذلك أن مدار الفعل في هذه المرحلة يدور حول الصراع الأبدي بين الحق والباطل .. والناس يتوزعون بين هذين الجانبين منذ أن خلق الله البشر .

وتوضح مثل هذه المواقف القصصية : «أن القادة الرسل هم مصدر العقيدة ومنبع الايمان .. وانهم يتحملون عبء هذا العقيدة وعبء توصيلها إلى الناس .. إنهم أصحاب دعوة وليسوا أصحاب عقيدة فحسب . ولهؤلاء القادة الرسل نفوذ لا يقوم على مغريات مادية .. بل هم قوم عمر الايمان قلوبهم يندفعون نحو غاياتهم»[٣٣] .. في إصرار مكين ويتلذذون بما يصيبهم من آلام ..

(٣٣) من هدى القرآن . أمين الخولى انظر ص٣٠ — ٤١ .

لأنهم يسعدون بنتجة الصبر في النهاية .

ولأن الهدف من ايراد هذه المواقف القصصية هو تثبيت الرسول في جهاده ضد كفار قريش ، كانت الشخصيات تتحرك وهي في طور النضج الكامل . إنهم رجال ناضجون يؤدون الرسالة .. في ثبات ، ونضج كاملين ــ ولذلك جاء ذكر طفولة بعض الرسل كموسى لخدمة الأصطفاء الاهي له .. ولتوضيح قيمة النضج الرجولي والسواء النفسي فيما بعد .. حين يحتدم الصراع .. وتكاد الشخصيات في النهاية وهي تنطلق من منطلق العقيدة الواحدة ، وتدعو إلى ذات العقيدة الواحدة ، وهي الوحدانية لله .. تكاد تكون رموزاً واحدة .. فالتعبير واحد ، والموقف واحد ، ومواجهة القوم واحدة ، والدعوة إلى عبادة الله واحداً لا شريك له .. واحدة ..

وعلى ذلك يصبح محمد ﷺ واحداً من هؤلاء القادة الرسل .. وما جرى عليهم يجري عليه ..

ومن هنا تشى مثل هذه المواقف القصصية ، بالهدف وهو تثبيت الرسول ﷺ ، ومساندته في جهاده ، وتبشيره بالغلبة على الكفار مثله في ذلك مثل الرسل السابقين ..

فالأنبياء لهم مكانتهم الخاصة بين البشر «وهم يمثلون وحدة الرسالة الالهية»[٣٤] .

ولنأخذ نموذجاً لموقف قصص برزت فيه الشخصية بروزاً واضحاً يش بالفعل ، وقوة المواجهة ، وتحمل العناء .

قال تعالى :

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين

---

(٣٤) معلمة الاسلام أنور الجندي ص٣٤ .

عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون . فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾[٣٥]

في هاتين الآيتين برزت شخصية نوح عليه السلام قوية صامدة ، ثابتة صبوراً تتحمل الأذى ، والسخرية ، والصدَّ ، ولقد ظل نوح يدعو قومه زماناً طويلا ــ دون أن ييأس ــ إلى توحيد الله ــ وإفراده بالوحدانية . ولكنهم كذبوه فأهلكهم الله بالطوفان وهم مصرون على الكفر والضلال . ونجى الله نوحاً ومن ركب معه في السفينة . وجعلها الله آية للناس وعظة وعبرة لمن يقف موقفهم ويعاند عنادهم .

وفي قصة نوح تتبدى ضخامة الجهد ، وضآلة الحصيلة .

لقد وضحت القصة المغزى الحقيقي ، وهو خلاصة الجهد الجبار المبذول من نوح ، وذلك في إيجاز شديد .. بالرغم من أن القصة قد وردت في مواضع أخرى مفصلة ، غاية التفصيل ..

وتتابع الآيات الكريمة لتسجل قصصاً أخرى ...

قال تعالى :

﴿وابراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون . إنما تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكاً ، إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون[٣٦]

..... فما كان جواب قومه إلا ان قالوا اقتلوه أو حرّقوه فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾[٣٧]

وهذا الموقف من القصة يوضح أن ابراهيم دعا قومه إلى عبادة الله

---

(٣٥) سورة العنكبوت آية ١٤ ــ ١٥ .

(٣٦) سورة العنكبوت آية ١٦ ــ ١٧ .

(٣٧) سورة العنكبوت آية ٢٤ .

وحده لا شريك له ، والاخلاص له ، وبين لهم أن عبادة الله خير لهم من عبادة الأوثان ، التي لا تنفع ولا تضر ، وإنما هي أصنام منحوتة من فعلهم وبأيديهم . ويبتغون منها الرزق وفي الحقيقة ما هي إلا حجارة صماء ، وإنما ابتغاء الرزق يكون بطلبه من الله تعالى فإنه القادر على ذلك . فهو وحده المتفرد بالعبادة والمختص بالشكر وإليه المرجع يوم القيامة ليجازي كل انسان بعمله .

وكان ردّ قومه على هذه الدعوة ان طالبوا بقتله أو حرقه بالنار وألقوه في النار ولكن الله نجاه منها حين جعلها برداً وسلاما . وفي نجاة ابراهيم من النار ، وتحول النار إلى برد وسلام .. دليل على قدرة الله ، وبرهان على مؤازرته للمؤمنين من عباده .

... وفي هذا الجزء من القصة يتضح لنا الجهد الفائق الذي بذله ابراهيم لدعوة قومه إلى الحق والايمان والوحدانية .. وكان الجزاء ، الاحراق .. بالرغم من البراهين الكثيرة التي ساقها لهم .

فلقد تدرج معهم خطوة خطوة ، ولكن قلوبهم انغلقت على ضلالها .. ولقد بذل ابراهيم عليه السلام مجهودات فائقة وتحمل الكثير من ألوان التعذيب والمعاندة ، والصد والسخرية ، وكانت نتيجة تلك الدعوة في قومه ضئيلة للغاية لا تتناسب مع الجهاد الضخم الذي قام به ابراهيم عليه السلام .. ومع ذلك لم ييأس ..

وانتهت دعوة ابراهيم لقومه ، والمعجزة التي لا شك فيها انتهت هذه وتلك بإيمان فرد واحد غير امرأته هو لوط)[٣٨] إن هذين الموقفين وغيرهما كثير يتحدثان عن محنة الأنبياء ومالاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله .

---

(٣٨) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص٢٧٣٢ .

(وفي قصص الأنبياء دروس من المحن والابتلاء ، تتمثل في ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ...)[٣٩]

والآيات التي وردت سابقاً من سورة العنكبوت ، وهي سورة مكية تتناول آياتها الأولى موضوع الجهاد ، وبيان أن الايمان ليس كلمة تقال وإنما هو الصبر على المكاره والتكاليف ..

ويمضي بعد ذلك السياق ليستعرض قصص نوح وابراهيم وغيرهم من الأنبياء استعراضا يصور ألوانا من العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الايمان[٤٠] ويكشف السياق الهدف من ذلله كله وهو بيان التوحيد الذي يوحد بين الدعوات جميعا وبين دعوة محمد ﷺ ، فكلها من عند الله وكلها دعوة واحدة إلى الله .

ونموذج الشخصية البارزة في هذه المواقف نموذج فذٌّ ، فهي شخصية عملية فاعلة ، عادلة ، تقتحم الصعوبات ولا تبالي . صامدة على الحق ولو كان مصيرها الموت أو الاحراق .. ولقد غلب على هذا الجو السرد القصصي والايجاز في العبارة وقلة الحوار ، لأن الهدف هو ابراز الفعل وتوضيح النهاية ، والوصول إلى الهدف مباشرة ، وهو مدى مالقيه الأنبياء في سبيل دعوة الأقوام إلى الايمان بالله .. وفي ذلك كله تثبيت لرسول الله وإيناس له ومؤازرة لموقفه .

---

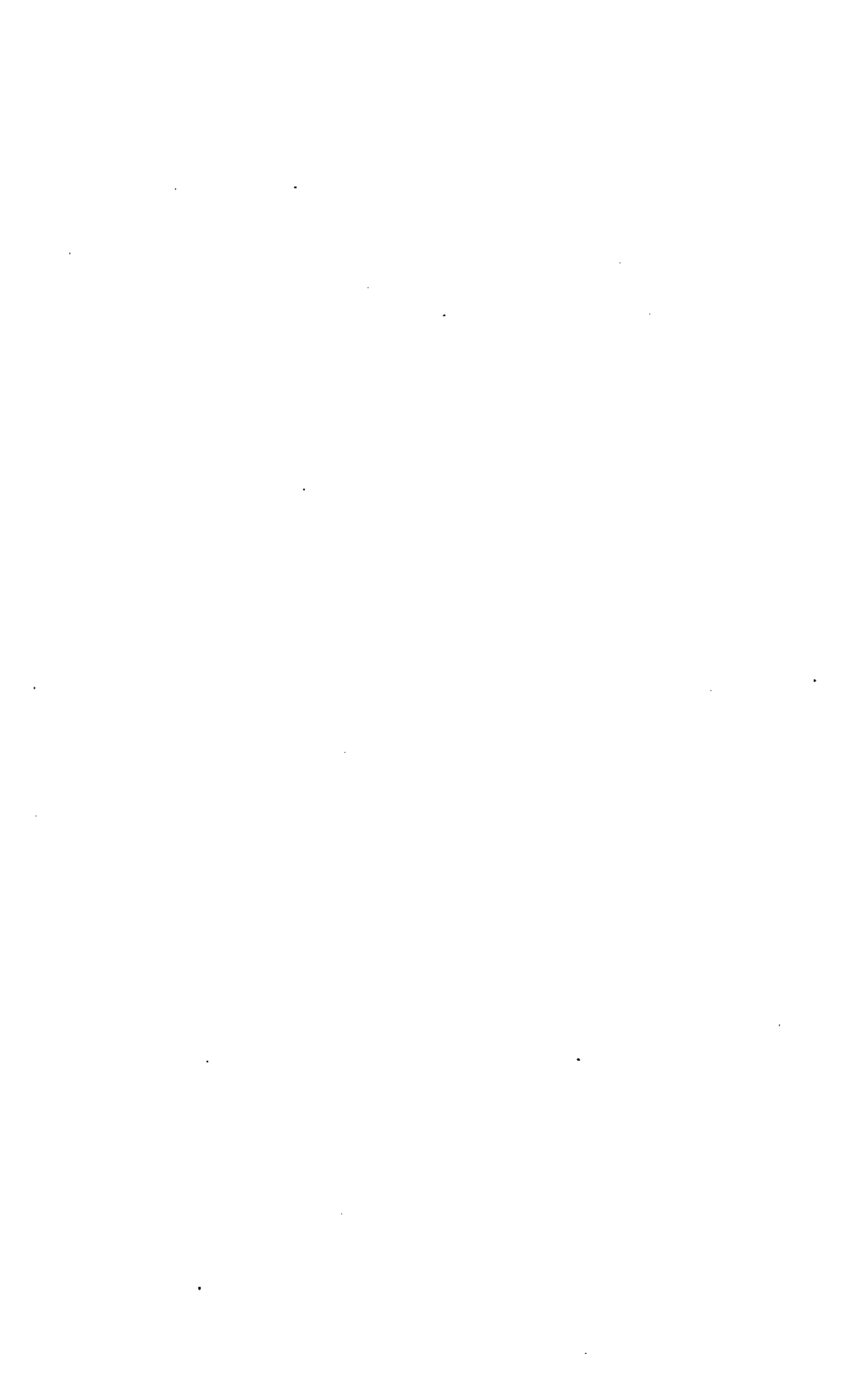
(٣٩) صفوة التفاسير جـ٢ ص٤٥٠ .

(٤٠) في ظلال القرآن مجلد (٥) جزء ٢٠ ص٢٧١٨ .



الفصـــل الرابـع

السَّرْدُ القَصصي



٤ ـ السَّرد القصصي

القصة في القرآن الكريم لها طبيعتها الخاصة وبناؤها المتميز ، والذي يفرقها عن غيرها من القصص البشرية : انطلاقها من ان القرآن الكريم هو في المقام الأول كتاب دعوة دينية ، أخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فهو كتاب عقيدة وشريعة ، ودستور كامل متكامل للحياة البشرية في مختلف جوانبها الروحية والمادية .

ومن ثم فإن القصة في القرآن وسيلة من الوسائل التي استخدمها القرآن لابراز الغرض الديني العام من تشريع ، وتوحيد ، وعقيدة ، وصياغة الانسان صياغة دينية سامية تسعى إلى بنائه بناءً متكاملا ، يتناسق والمعتقد الديني ويتنامى مع المجتمع في تعدد علاقاته وتشابكها .

ولقد حملت القصة القرآنية خصائصها الفنية المتميزة التي بها يتحقق هذا الغرض الديني الكبير ، وهي خصائص تتسم بجمال فني أخاذ يؤثر في النفس ، ويتغلغل في الوجدان ..

فالقصص أحفل بالأسوة ، وأعمل في النفس ، وأبعث على الطمأنينة والرجاء . إنه أخف على السمع ، وأرعى للانتباه ، لا يأمر ولا ينهى ، ولكن يقص الأنباء ويصف الأحداث ، ويقرن العمل بعاقبته والجزاء عليه ، في بيان رائع وتصوير صادق ، يجيش بالحياة والحركة ، فتسري الحكمة منه والموعظة إيحاءً وانفعالا ، لا طاعة لأمر ، ولا تأثراً بوعظ ، فينزل من أعماق النفس في قرار مكين ، حتى كأنه من نبع الوجدان وإشعاع الذات [1] .

ولقد وصلت القصة القرآنية إلى هذا التأثير الوجداني الفعال

---

(١) مع القرآن الكريم في دراسة مستلهمة . على النجدي ناصف . دار المعارف ص٢٣ .

بطرائق فنية وجمالية خاصة بها .. وذلك عبر طريقة فذة في العرض والسرد ، ذلك العرض القصصي القائم على قانون الانتخاب في اختيار الجزء من القصة الذي يتلاءم والسياق القرآني في الموضع الذي وردت فيه والغرض الديني العام .

«فمعظم القصص يبدأ بإشارة مقتضبة ، ثم تطول هذه الاشارات شيئاً فشيئاً ، ثم تعرض حلقات كثيرة تكون في مجموعها جسم القصة .. حتى إذا استوفت القصة حلقاتها عادت الاشارات هي كل مايعرض منها»[٢] وأدى ذلك إلى تنوع طرائق التناول الفني .. وهو تنوع ينسجم مع طبيعة القصة القرآنية .. وأهم مايلفت النظر أن القرآن وهو يسرد القصة يقوم بعملية فنية تعتمد على الانتخابات من الوقائع والأحداث .. في إجمالي لا يحتاج إلى تفصيل وهو مبدأ عرفته القصة البشرية حديثا حيث عمد المؤلف إلى تنحية كثير من التفاصيل الواقعية التي تضر بالحدث وترهل جسم القصة .

ولا شك أن الحدث المسرود هو روح القصة يمنحها الحياة ويضفي عليها الحيوية ، والحدث في قصص القرآن بارز ومسيطر .. يقوم بدوره من حيث التأثير وتوصيل الغرض الديني ، وابقاء جذوة التشويق آخذة بالألباب .

والقرآن الكريم يمسك بالأحداث ويحرك الأشخاص وينقل مايقولونه مسبوقا بقال .. فهو المهيمن على فنّ النص .. وهو من الفن القصصي المسرود الذي عرفته البشرية فيما بعد .. ولقد سبق القرآن الكريم محاولات البشر في الهيمنة على النص القصصي . يقول فورستر عن تحكم الروائي وعلوه وانتخاب أحداث نصه القصصي بما يحدث التأثير المطلوب من النص (يسير الروائي راسخ القدم فهو

---

(٢) التصوير الفني سيد قطب ص١٥٦ .

-شخص ماهر ، يجلس أعلى من عمله ، يلقى شعاعا من الضوء هنا أو يتحرك مرتديا طاقية الاخفاء هناك ، وهو يتفاوض مع نفسه كمبدع للشخصية عن أحسن تأثير يمكن أن يحدثه)[٣] ولا شك أن سمو السارد وارتفاعه يمكنه من القبض على الحدث والشخصية ويساعده على التعرف على كنه الشخصية ومردوداتها على سرد الأحداث وتناميه ..

ومن ثم يتلاءم أسلوب العرض القرآني مع انتقاد الحدث المسرود فينحى تماما كل مايمت للحدث بصلة ، ومالا يتلاءم مع الهدف الديني ، ويخلص إلى التركيز حول محور الشخصية وجوهر الدعوة وردود الأفعال .

والقصة القرآنية قد التزمت «طريقة الرواية التي تؤذنك دائماً بأنك تسمع أخبارا قد ذهب أشخاصها في التاريخ .. وأنها في هذا العرض إنما هي في بعث جديد»[٤]

ولا شك ان ذلك يساهم في تصفية الأحداث التاريخية مما علق بها من تحريف وتشويه ذلك أن هذه الأخبار «تجيء من جهة عالية عالمة ، وسع علمها ما تحوي الأزمنة والأمكنة» وهو في ذلك يرتبط ارتباطاً وثيقا بالجانب الغيبي في القصة القرآنية ..[٥] ..

ومما يلاحظ على القصة القرآنية وهي تسرد الحدث ذلك التنقل السريع في تسلسل الأحداث والاعتماد على تتابع الأحداث تتابعا سريعا لخلق جوٍّ مليء بالحركة وكأنما نحن أمام مسرح حافل بالنشاط في مشاهد حيوية متتابعة»[٦] ولنأخذ نموذجاً لهذا التتابع في

(٣) أركان القصة : فورستر ص١١٩ .

(٤) القصص القرآني في منطوقه ومفهومه . عبدالكريم الخطيب ١٩٦٤م ص٨٣ .

(٥) نفسه ٨٤ .

(٦) القصص في الحديث النبوي الشريف ص٢٤٥ .

سرد الأحداث الذي مال حينا إلى التفصيل وحينا إلى الايجاز ..
وسيدور النموذج حول قصة نوح .. وقد وردت في سورة هود ..
قال تعالى :

﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذير مبين . ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ، مانراك إلا بشراً مثلنا ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده ، فعميت عليكم انلزمكموها وأنتم لها كارهون . وياقوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا ، إنهم ملاقوا ربهم ولكني أراكم قوماً تجهلون . وياقوم من ينصرني من الله إن طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ، ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما في أنفسهم إني إذاً لمن الظالمين . قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾(٧)

وقصة نوح وردت مفصلة ومتعددة الأحداث في هذه السورة — وجاء جانب الدعوة أكثر تفصيلا لما تحتاجه الدعوة من وقت ولما يكتنفها من صد واعراض ومن ثم كان الجدل أهم عنصر فني يتسيد الموقف ..

والقصّ القرآني وهو يسرد موقف الدعوة والجدل فيها بدأ بالعبارة القرآنية التي تجعل المشهد حيا ، وتجعل الواقعة التاريخية القديمة في بعث حي جديد كأنها واقعة حاضرة .. ومن ثم جاء الايجاز الناتج عن

---

(٧) انظر هود آيات ٢٥ — ٣٢ ، ٣٣ — ٣٥ .

حذف الفعل . قال : التي تتضمنها العبارة القرآنية «إني لكم نذير مبين» . وهذا الايجاز يلقى سريعا بوظيفة الرسالة . وينتقل الجدل القولي الناتج عن فعل الدعوة ــ والذي هو حدث هزّ الثوابت من عقائد القوم ــ إلى تقرير شبهة وقرت في نفوس الجاهلين من البشر وهي شبهة ووجه بها الرسل جميعا .. وتضمنت العبارة القرآنية ﴿**مانراك إلا بشراً مثلنا**﴾ هذا المعنى ..

ويتوزع الجدل القولي ــ وهو يعكس الجدل الحدثي ــ إلى اتجاهين . الاتجاه الايماني الذي يمثله نبي الله نوح ومن معه ، ولقد اقتضى هذا الاتجاه لابرازه استخدام الأدلة العقلية لاستثارة مدركات الذهن الغائبة المطموسة لادراك حقيقة الألوهية والوحدانية والتأكيد على أن نوحاً ما هو إلا رسول يبلغ الرسالة .. والاتجاه الثاني يتمثل في نفور الكفرة وصدهم عن سبيل الله وتعاليمهم حيث أخذتهم العزة بالاثم وقد يئسوا من مقارعة الحجة ، فيأخذون بالحدث إلى منحى جديد ، منحى التحدي .

ولقد كان طبيعياً أن يأتي الحوار على لسان الشخصيات عبر لفظه ، قال ، قالوا ذلك أن القرآن يقوم بدور القص على ألسنة المتحاورين فينقل مايقال وماتعبر به الشخصيات من كلام مسبوقا بـ قال ، أو قالوا .. وغيرهما قلت ، قالت وهكذا وهو مرتبط فنياً بطبيعة السرد القرآني انطلاقاً من الهيمنة على الحدث والنصّ .. وعكس التكوين الدلالي للاتجاهين نموذج الداعية في سماحة القول ، والتذرع بالصبر وقدم درساً (في مواجهة أصحاب السلطان بالحق المجرد ، دون استرضاء لتصوراتهم ودون ممالأة لهم ، مع المودة التي تنحني معها الرءوس)[8]

(٨) الظلال جـ٤ ١٨٧٥ .

على حين عكس الاتجاه الثاني انطماس القلب وجمود العقل والاغترار بالجاه والسلطان .. وهذا المعنى الذي يعكسه هذا في الاتجاهان في الموقف القولي (الجلي) المسرود بين نوح وقومه ، إنما هو لتربط بينه وبين دعوة محمد ﷺ وموقف كفار قريش منه .. وهذا الالتفات يعمق سياق المعنى العام ويؤكد على وحدة الرسالة منذ آدم ومرورا بنوح وابراهيم إلى محمد .. كما يؤكد على نفس الوسيلة التي يلجأ إليها الرسول في بيان الدعوة ، ومايواجهه من قومه من عنت ونفور ..

لقد جاءت هذه الاشارة القرآنية في ختام الحدث المسرود في الآية ﴿**أم يقولون افتراه قل إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما تجرمون**﴾ .. جاءت لتربط الحدث التاريخي المسرود عن موقف الجدل بين نوح وقومه لتبعثه حيا ليقف موازياً — في إشارة قرآنية سريعة — مع مايحدث بين محمد وقومه .. لقد التقى الماضي بالحاضر .. التقاء امتزاج ، وتوحد ..

قال تعالى :

﴿**وأوحي إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون . ويصنع الفلك وكلّما مرّ عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنّا نسخر منكم كما تسخرون . فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم**﴾[٩] .

هذا موقف حدثي جديد بعد ما انتهى حدث الجدل والانذار .. والآيات تنتقل من حدث إلى حدث في سرعة خاطفة وفي ترابط

---

(٩) هود آيات ٣٦ — ٣٩ .

داخلي للحدث . فالأمر الموجه إلى نوح بصنع الفلك ، حدث يقتضي التهيؤ له ليتحقق هو الآخر حدثا مرتبطا به وهو الاعتزال ، اعتزاله عن القوم وترك الجدل .. هذا الانغماس في صنع السفينة ، والعمل فيها ليل نهار ، استوجب حدثاً آخر يرتبط به ، وهو حدث أدخل إلى الجانب النفسي ، حدث السخرية والقوم يرونه وقد انقلب نجاراً يصنع مركباً (إنهم يسخرون لأنهم لا يرون إلا ظاهر الأمر ، ولا يعلمون ما وراءه من وحي وأمر)[10] .. ولأن السخرية جاءت من الخارج تهكما موجعا ، ولأنهم في الحقيقة لا يعلمون الحكمة من وراء صنع السفينة ، فقد جاء ردّ نوح عليهم ردًّا داخليا .. ردًّا يحمل حديث النفس إلى النفس ، (ويكاد هذا الرد يكون نوعا من تيار الوعي فهي إجابة قد يقولها نوح بصوت مسموع أو يقولها لنفسه)[11]

وتيار الوعي هذا لون من الأداء القصصي عرف مؤخراً في النتاج الروائي .. تصبح منه الأحداث مروية بحسب أهمية ورودها على ذهن الشخصية .. مما يفقد العمل أحيانا تماسكه ، ويؤدي إلى اختلاط أحداثه وأزماته ، ومن ثم فإنني أميل إلى أن نطلق عبارة حديث النفس على مادار في نفس نوح وهو يرد على سخرية القوم .. ذلك لأنها تصل بالحدث إلى نهايته الطبيعية في وضوح فثمة ساخر من نوح وهو يعمل كنجار ، ساخر جاهل بالحقيقة ، وثمة نبي يصنع السفينة ، ويرد على الساخرين في حديث نفس يحمل الوعيد والتهديد . (فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه) .. ولأن العبارة وعيد فاحتمال ورودها النفسي قائم وكذلك احتمال التلفظ بها قولا مجهوراً قائم أيضا ..

---

(١٠) الظلال ص٤ ١٨٧٧ .

(١١) السرد القصصي . ثروت أباظة ص١٢ .

وحتى يتحول الحدث المسرود إلى موقف حي ، جاء الفعل المضارع «يصنع» ليعطي للموقف في سرده حضوراً قوياً أخاذا ، ثم الفعل «نسخر ، تسخرون» ، يجذب بأطراف الحدث في حضور قوي مشتجر .

قال تعالى :

﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور ، قلنا أحمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل . وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها إن ربِّي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يابني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي . وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾[١٢]

هذا مشهد حي زاخر بألوان الانفعالات والمشاعر ، وممتلىء بالوصف والتجسيم ، الأحداث المسرودة فيه معروضة عرضاً فنياً أخاذاً ، يمسك بعضها برقاب بعض وينتج بعضها عن بعض نتاجاً سببيا عضوياً ، يؤدي إلى التلاحم القوي .

فثمة حدث كوني يمحو سخرية القوم ويوقفهم على الحكمة من صنع السفينة .. فثمة فوران .. وهطول المياه من السماء وتفجر الأرض .. وهنا يتضح لنا الغرض من صنع السفينة .. إنها وسيلة انقاذ المؤمنين .. ولا شك أن الحرف الغائي (حتى) يفيد هذا المعنى في

---

(١٢) هود آيات ٤٠ ــ ٤٤ .

ابراز الغرض والغاية من الصنع .

ويتداخل مع الحدث الكوني حدث بشري سريع فيه الخوف وفيه الطمأنينة ، حدث أمر به نوح ففعله فأضحى حدثاً مشهوداً ، وهو يجمع في السفينة من كل زوجين اثنين .. وأهله ليحقق النجاة من الهلاك للبشرية ، ومافيها ..

وتمخر السفينة بمن فيها ومافيها وسط عباب الموج الهائل .. وهو حدث مادي مسرود عن طريق الوصف ، فالموج متراكم ومتثاقل وعالٍ علو الجبال ، يأخذ بمخاوف النفس وهذه المخاوف النفسية تنقلنا نقلة حديثة سريعة لتكمل سرد الموقف في جانبه النفسي ، حيث تحكي المفاجأة التي حدثت بين نوح وابنه الضال ، لتأتي نهاية العاصي عاصفة وسط الموج العاصف ، إنه سقوط النفس الآثمة (وحال بينهما الموج فكان من المغرقين) .

ويأتي المشهد إلى نهايته في نقلة سريعة في النص طويلة الزمن في التاريخ .. ولكن السرعة تلاءمت مع تلاحق الأحداث المسرودة لتصنع لنا مشهداً دائرياً يحكم قبضته على الكون والانسان بدءاً من جفاف الأرض التي تفجرت وانتهاءً بانحسار المياه لتجف الأرض ويستقر من بداخل السفينة على الأرض لتبدأ رحلة الحياة من جديد .

قال تعالى :

﴿ونادى نوحٌ ربَّه فقال ربِّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنَّه عمل غير صالح ، فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إن أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إني أعوذ بك ان أسألك ما ليس لي به علم والا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين . قيل يا نوح اهبط بسلام منَّ وبركات عليك وعلى أمم ممَّن معك وأمم سنمتعهم ثم

يمسهم منا عذاب أليم﴾[١٣] .

.. وهذا مشهد يتصل بالانسان وعاطفته ، إنه نوح وقد تلهف على ابنه الذي حال الموج بينه وبين النجاة ، ولكن أمر الله مقضي ، فالولد عاصٍ واللهفة لا محل لها ولا مكان . فالقرابة ليست قرابةً دم أو نسب وإنما قرابة العقيدة والدين . ومن ثم فإن أداة التوكيد«إنّ»جاءت متكررة لتحمل التأكيد على هذا المعنى .. والآيات مواساة للنبي ، واسكان لنفسه الوالهة على ابنه .. وينتهي الحدث الكبير بالحياة من جديد حيث تتقابع الأمم وتعيش حياتها مابين متعة وعذاب .

والتنقل السريع في تسلسل الأحداث لا يمنع أن تكون هناك فجوات هي المساحات الزمنية المتصورة بين حدث وآخر .. وهي فجوات قد يلجأ الذهن إلى تصور مجريات حدوثها من امتداد الحدث لاتصاله بالآخر . وهي فجوات لا تعطي للبعد الحدثي نمواً ومن ثم غفل القصّ القرآني عن سردها واكتفى بسرد جوهر الحدث وتواصله مع الأحداث الأخرى في نقلات سريعة مؤثرة . فالأحداث هنا متلاحقة تشابكت وتآزرت منذ بدأ نوح عليه السلام دعوته وأنذر قومه مرورا بصنع السفينة والاعتزال ، والسخرية ، والحدث الكوني ، وغرق الولد ، ونجاة المؤمنين ، ومن ثم الاستقرار لبدء الحركة الحياتية من جديد .. كل حدث يلاحق ويلاصق الآخر ..

إن هذا التتابع في سرد الأحداث يعطي للقصة تماسكها ويضفي عليها وحدتها الموضوعية ، ويبرز ملامح الصراع فيها ، ويكشف عن نمط الشخصيات أيضاً . وهذا الترابط المتتابع يؤدي إلى وحدة في الأثر لدى المتلقي بصورة مركزة ، ولا شك ان (تدرج تطور الأحداث يمثل مظهراً جيداً لترابط بنائية الحدث من الداخل)[١٤]

---

(١٣) هود آيات ٤٥ ــ ٤٨ . (١٤) القصص في الحديث النبوي ص٢٤٦ .

.. ولا شك ان السياق الذي وردت فيه هذه الآيات الكريمة سياق سردي في جوهر السورة ككل ، وهي السورة التي أخلصت لحركة الأنبياء في دعوتهم إلى التوحيد .. حيث عرضت مواقف الرسل وهم يقومون بالدعوة وماوجهوا به من أعراض وتكذيب وسخرية واستهزاء وتحد وغرور ، وصبر من الأنبياء وثقة بربهم ، وفي نصر الله لهم .

ولقد سردت السورة قصة نوح ، كما أوردنا ، كما سردت قصة هود حين دعاهم إلى التوحيد فتكبر القوم وعاندوا ، وصبر النبي عليهم وحذرهم عذاب الله ولكنهم ظلوا سادرين في غيهم حتى حلّ عليهم العقاب . قال تعالى : **﴿ولما جاء أمرنا نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ﴾**

وفي قصة صالح يسرد القرآن دعوة النبي إلى قومه ثمود بعبادة الله ويذكرهم بنعمة عليهم ويصبر على عنادهم ويأتي لهم بالناقة آية كبرى لعلهم يهتدون ولكنهم عتوا في الأرض فحق عليهم عذاب الله .

قال تعالى :

﴿فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ ان ربك هو القوي العزيز﴾[١٥]

وفي قصة شعيب يدعو النبي قومه إلى الايمان بالله واحداً لا شريك له ، ونبذ الوثنية التي وقعوا فيها ، ونصحهم بالوفاء بالكيل والميزان ومراعاة حقوق الله في خلقه ، مستخدما الوسيلة العقلية التي تذكرهم بنعم الله عليهم والوسيلة الوجدانية التي تثير فيهم عواطف الرحمة أو الخوف ولكنهم كابروا فحاق بهم عذاب الله ..

قال تعالى :

﴿ولمّا جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا

---

(١٥) هود ٦٦ .

وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾[16]

وفي قصة لوط حيث دعا النبي إلى التوحيد وإلى التمسك بما شرعه الله من أحكام والتخلي من الخلق السيء الذي يرتكبونه من دون خلق الله جميعاً ، حيث يأتون الذكران ، ولقد صبر النبي على فساد خلقهم لعلهم يهتدون حتى وصل الأمر بهم أن يرغبوا في ضيف لوط .. فكانت العاقبة التي حاقت بهم . قال تعالى : ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾[17] .

والسور القرآنية بهذا المنطق القرآني السردي عبر قص أخبار الأنبياء مع أقوامهم إنما تستعرض حركة التوحيد في تاريخ البشرية ، لتقرر أنها جميعا قامت على التوحيد والايمان بالله وحده لا شريك له ، وذكرت وسائل الأنبياء إلى أقوامهم للدعوة بالحسنى ، والترغيب في الجنة والترهيب بالنار ، وانذارهم بالوعيد الذي يستحقه الظالمون المعاندون ، ثم تتشابه النهايات حيث يأتي أمر الله فيحيق العذاب بالكافرين . وجاءت العبارة القرآنية **﴿فلما جاء أمرنا﴾** ، لتستقطب حركة العذاب والعقاب الالهي الذي نزل بالأقوام على حين نجى الله رسله ومن آمنوا معهم وهذا السرد القرآني لقصص الأنبياء فيه تسرية لرسول الله ﷺ وتوجيهه ﷺ إلى مفاصلة المكذبين من قومه كما فاصل الرسل أقوامهم على الحق الذي أرسلوا به .. فضلا عن التنويه بدلالة هذه القصص ذاته على صدق الدعوة وصدق الوحي والرسالة .. مما تأتيّ به الآيات الكريمة قال تعالى : **﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾**[18] .

---

(١٦) هود ٩٤ . (١٧) هود ٨٢ . (١٨) هود ٤٩ .

(وهكذا نجد القصص في القرآن يواجه مقتضيات الحركة والمعركة مع الجاهلية في مراحلها المختلفة مواجهة حية فاعلة ، شأنه شأن بقية السورة التي يجيء فيها ، ونجده في الوقت ذاته متناسقا مع سياق السورة وجوهرها وموضوعها ، متوافياً مع أهدافها ، مصدقاً في عالم الواقع لما تقرره من توجيهات وأحكام وأبحاث تقريرية)[١٩]

.. والسرد في قصة نوح التي وردت في سورة هود يختلف عن السرد الوارد في سورة نوح .. ففي سورة نوح يقف السرد عند وسيلة الابلاغ وطريقة المنهج في التبليغ وطرائقه الداعية إلى الايمان والاعتقاد السليم ..

.. ولقد ورد ذلك كمشهد جزئي في سورة هود ، مشهد من أحد المشاهد المتلاحقة التي وصلت إلى النهاية المحتومة وهو العذاب والطوفان .. ولكنه في سورة نوح مشهد ممتد ، ومفصل تفصيلا دقيقاً ..

ولقد بدأت السورة بأمر التكليف ﴿**إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك**﴾ .. وينتقل السياق السردي مباشرة إلى موقف التبليغ .. هذا الموقف الذي خلصت له السورة كلها .. فيدعوهم إلى عبادة الله وتقواه وطاعة نبيه ، فإن استجابوا فإن الله يغفر الذنوب جميعا ويؤخر حسابهم إلى أجل مضروب في علم الله وهو اليوم الآخر .

ثم ينتقل السرد بعد ذلك إلى توضيح مافعله نوح من جهود مضنية تواصلت زماناً طويلا في دعوة قومه إلى الايمان .. وكان حصاد الدعوة أن استجاب نفر قليل للدعوة فآمنوا بما جاء به ، على حين أعرض الكثير وأصروا على الأعراض ..

---

(١٩) الظلال مجلد (٤) ص١٨٤٣ .

قال تعالى :

﴿قال : ربِّ إني دعوت قومي ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعائي إلا فراراً . وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً﴾[20]

ويمضي السرد القولي في تفصيله لموقف التبليغ ليوضح الأساليب التي اتبعها نوح في دعوته ، حيث يجهر بالدعوة ويسرها أحياناً ، أو يزاوج بين الاعلان والأسرار حينا آخر وفي أثناء ذلك وعبر الدعوة يرغبهم في خير الدنيا والآخرة ، ويطمعهم في الرزق الوفير .. الحاصل من سلامة القلوب والاستقامة على الحق .. وهو سبب تعليلي يربط الأسباب بالنتائج ، حيث استثارة المدركات العقلية لاستقراء الأحوال ، واستثارة الوجدانات البشرية وإحياء الرغبات الفطرية في الكسب وزيادة الرزق ..

واستثارة الملكات العقلية ترد حين وجه نوح نظر قومه إلى الكون ليتأملوا مافيه من سماء وشمس وقمر . كل مخلوق بحكمة وإرادة ويلتفت بمداركهم إلى الأرض التي يعيشون فوقها ليتدبروا كيف خلق الله الانسان .. وما خلق الانسان إلا كما يخلق النبات من الأرض (والتعبير عن نشأة الانسان من الأرض بالانبات تعبير عجيب موح .. وهي ظاهرة توحي بالوحدة بين أصول الحياة على وجه الأرض)[21] .

قال تعالى :

﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً . والله انبتكم من الأرض نباتاً . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجاً﴾[22]

---

(٢٠) نوح ٥ ــ ٧ .

(٢١) الظلال مجلد (٦) ص٣٧١٤ .

(٢٢) نوح ١٥ ــ ١٨ .

ولقد سلك نوح مع قومه لتوضيح دعوته شتى الأساليب في صبر بالغ ودأب متواصل ، ولكن كانت ثمرة هذا العذاب الطويل العصيان والنفور ، حيث سار القوم في ضلالهم المعهود فيهم ، فيتوجه إلى الله بالدعاء عليهم بالويل والثبور .

قال تعالى :

﴿قال نوح ربّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً﴾(٢٣) .

وقال تعالى :

﴿مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله انصاراً﴾(٢٤) .

وفي هذه الآية إشارة لنوع الهلاك الذي حاق بقوم نوح وهو إغراقهم بالطوفان . ولكن النهاية هنا جاءت إشارة لأنه لم يكن الهدف من السرد هو تفصيل الحدث الطوفاني وإنما تفصيل الدعوة وابراز وسائل التبليغ للقوم .. والاشارة هنا (اجهاز سريع) للقوم وابراز للنهاية في إشارة سريعة مقتضبة تتلاءم مع السياق التفصيلي للدعوة ..

.. وهكذا يرتبط السرد بمنهج السورة ككل فيأتي متلائماً مع السياق والهدف الديني الكامن وراءه .

وتأتي سورة يوسف نموذجاً كاملا للسرد القصصي في القرآن ، والسورة وردت بعد سورة هود التي أوردت بعضا من المواقف القصصية في سير الأنبياء والسابقين ، ولعل المغزى الديني في قصص الأنبياء في سورة هود هو مواجهة الرسل أقوامهم في الدعوة إلى التوحيد ثم ماحلَّ بهم من عقاب وما أنعم به الله على رسله والمؤمنين وبيان أن

---

(٢٣) نوح ٢١ .

(٢٤) نوح ٢٥ .

وسيلة الأنبياء في الدعوة واحدة .. وهذا فيه إنذار لمشركي مكة وتسلية للرسول وإيناس له ، وضرب المثل الصبر والتحمل والاشارة إلى أن كلمة الله هي العليا .

وتختلف سورة يوسف عن غيرها من السور التي ورد فيها مواقف قصصية ، تختلف في أنها تقص قصة نبي واحد ترك قومه بفعل الحقد والكراهية إلى أن مكنه الله في قوم غير قومه .

ولقد توافر في قصة يوسف مالم يتوفر في غيرها من القصص من حيث اكتمالها في معرض واحد ومن حيث وقائعها المتصلة «اتصالا بدأ بمقدمة أحداثها ، وانتهى بخاتمتها ، بحيث يستطيع قارئها أو سامعها أن يعرف كل حدث وتطوره ، وكل شخصية ودورها ، دون أن يقطع السياق أحداث قصة أو نبأ سواها ، ودون أن يتخللها تعليق طويل على مجرياتها يستخلص العبرة منها[٢٥] .. وهو نوع قصصي يختلف مثلا عما ورد عن قصة موسى التي توزعت حلقاتها على سور قرآنية كثيرة .

ولا شك أن هذا الاكتمال والاتصال في الوقائع أعطى للقصة حركة التطور المستمرة والاتساع الحدثي المسرود بما تضمنه من مفاجآت ، وما تخلله من مواقف لأشخاص عدة لها نمط خاص بها ..

والمشاهد وهي تنتقل من صورة إلى صورة ومن حركة إلى حركة حتى تأتي عليها جميعا إنما تدل على أن «خيط الأحداث تمسك به العناية الالهية من البداية إلى النهاية فقد بدأت القصة برؤيا يوسف في عالم الغيب وختمت بتحقق رؤياه في عالم الشهادة ..»[٢٦] .

وثمة اتساق يحكم البداية والنهاية .. ففي بداية القصة تصريح بأن

---

(٢٥) الاسلام والمذاهب الحديثة فتحي رضوان ص١٣٨ .

(٢٦) سيكلوجية القصة في القرآن ص٥١٠ .

ثمة قصة يسردها القرآن قال تعالى : ﴿**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين**﴾(٢٧)

ويأتي التعقيب على القصة في قوله تعالى : ﴿**ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون**﴾

وتبدأ أحداث القصة برؤيا رآها يوسف وهي مفتتح القصة ومفتاحها .

قال تعالى :

﴿**إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . قال يابني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إنّ الشيطان للانسان عدو مبين**﴾(٢٨) .

إنها رؤيا الغلام الذي رآها في الحلم ، وهي رؤيا ليست كرؤيا البشر ، ولكنها تحمل الرمز الكامل للقصة والذي ستفضّي معانيه الأحداث المتداعية .. ومن ثم حمل التمهيد بالرؤيا قدراً كبيراً من التشويق . وهي سمة لازمة في القصة المبهرة التي تبقى على وجدان القارىء وتمسك بمشاعره .. خاصة أن الحلم يلعب دوراً بارزاً في مجريات الأحداث حيث تتابع ــ كجزء مكمل للشخصية ــ ليصل بين الموقف وليكشف عن طبيعة الشخصية المحورية شخصية يوسف الذي اجتباه الله وعلمه من تأويل الأحاديث .. ما يوحى بالاصطفاء للنبي ..

وإذا كان الحلم هنا تمهيداً فإنه في ثنايا القصة أحد عواملها

---

(٢٧) يوسف ٣ .

(٢٨) يوسف ٤ ، ٥ .

الفاعلة .. قال تعالى في موقف حلمى آخر وقع في السجن .

﴿ودخل معه السجن فتيان ، قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾(٢٩) .

ولقد كان الحلم هنا فرصة مواتية ليبث العقيدة الصحيحة ، القائمة على التوحيد الخالص ، فالذي يستحق أن يكون ربًّا هو الله الواحد القهار ، وكان التأويل أحد الأسباب لخلاص يوسف من محنته ذلك أن المعرفة بحسن تأويله للأحلام استدعى أن يقوم بتأويل الرؤيا التي رآها حاكم البلاد .. ومنها كان انطلاق يوسف إلى التمكين في الأرض وتوليه أمور المعيشة فيها فضلا عن أمور الدعوة والتوحيد .

قال تعالى :

﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، ياأيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون .﴾(٣٠)

وجاء تأويل يوسف للرؤيا الملكية في وضوح وحسم وكشف عن الرمز المغلق للقوم .. والذي يدور حول البقر السمان والعجاف ، والسنبلات الخضر ، واليابسات .

قال تعالى :

﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه في سنبلة إلا قليلا مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون﴾(٣١)

---

(٢٩) يوسف ٣٦ .
(٣٠) يوسف ٤٣ .
(٣١) يوسف ٤٧ — ٤٩ .

لقد انتقلت الرؤيا وتفسيرها بيوسف نقلة جديدة حيث مكن الله له في الأرض وأعطاه مايستحقه من تكريم ..

ولقد وظفت الرؤيا توظيفاً فنياً بحيث جاءت حاملة التشويق لسرد الأحداث كلها ثم جاءت لتصل الأحداث ببعضها .. وفي كل وشت الرؤيا باصطفاء الله لنبيه ... ونعود إلى سرد الأحداث مرة أخرى لنقف على الخيط الفني الموصول بين المواقف والأحداث .

فلقد سارت الأحداث سيراً طبيعياً وفق السنين التي أرادها الله سبحانه .. وهي متسقة تماماً مع الوظيفة الفنية للقصّ والحكي (ذلك ان الطريقة الطبيعية لرواية القصة ــ كما نفهم في الأدب الانساني ــ أن نستهل العمل من البداية ثم نمضي إلى النهاية وذلك لكي نضفي على أحداث القصة التسلسل التاريخي المباشر كما حدث)[٣٢] وكانت سورة يوسف بما حكت عن النبي خير نموذج يجب أن يقتديه الكتاب في تناولهم للقصص التاريخي .

وبعد التمهيد الذي أحدثته الرؤيا ينطلق السرد القصصي ليكشف لنا عن مشاعر انسانية بغيضة ، تتمثل في الحقد والكراهية ، وهي مشاعر فطرية ، ولكنها تتلبس النفوس المريضة ..

فإخوة يوسف كبتوا في أنفسهم حقداً على يوسف لمحبة يعقوب له وأنسه به . وهم بطبيعة الحال يجهلون كنه هذا الحب ، فقلب يعقوب النبي يرى في ابنه يوسف مالم يره إخوته .. ولكن سيطرة الحقد جعلتهم يلجأون إلى المكيدة والتخلص من يوسف حتى يخلو وجه أبيهم لهم .. ووقعوا في سبيل ذلك في أكاذيب متتالية كشفها السياق القرآني على لسان يعقوب .. كما أنهم ــ وقد وقعوا تحت

---

(٣٢) عالم القصة . برناردي فوتو ترجمة د. مصطفى هدارة ص٢٦٨ .

الضغط النفسي ــ قاموا بتبرير فعلهم الخبيث ونسبوا الفعل للذئب .. وهذه المشاعر النفسية المريضة والمختلطة قد عبر عنها القرآن تعبيراً دقيقاً ..

قال تعالى :

﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين . إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلى أبينا منّا ونحن عصبة إنَّ أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً .. يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين . قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين﴾(٣٣)

لقد كاد إخوة يوسف له ، وجاءت هذه المكيدة لتبقى على مشاعر الشوق الذي أحدثه التمهيد ، لتجعله قائماً وموصولا .. وهذا الفعل الكائد يكشف عن طبيعة الشخصية الفاعلة . الشخصية المريضة ، فنحن هنا أمام إخوة يتنافسون على حب الأب ، ويرون أن الأب غير عادل في مشاعره تجاه أبنائه .. ولكن الحيرة والشك والتردد الذي كشفه الحوار فيما بين **﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾** وبين **﴿لا تقتلوا يوسف وألقوه في الجب﴾** .. هو حوار قصصي يبرز طبيعة الشخصية كشفاً رائعاً وهو حوار جاء عبر السرد ليكمل الموقف القصصي ويأخذ به إلى منحى فعلي آخر .

وموقف الأخوة ممتد وموصول ، حيث اسقطوا مشاعرهم وفضحوها أمام يوسف وهم لا يعرفونه . إذ أنهم ظنوه عزيز مصر .. وتبريرهم لوجود الصواع في رحل أخيهم سحب من ذاكرتهم مافعلوه بيوسف ، وماكانوا يضمرون له من حقد وماحاولوا به من الصاق التهم الظالمة به

---

(٣٣) يوسف آية ٧ ــ ١٠ .

وهم لا يدرون كنه الموقف أو حقيقته .
قال تعالى :
﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون﴾(٣٤)
ولقد تأثر يوسف بقول اخوته ومن ثم جاء الوصف «أنتم شر» مكانا ، ليدرأ عن نفسه التهمة ، ويقـرر ما تنطوي نفوس إخوته من شر وفساد .
.. ونعود إلى السرد بعد تنفيذ المكيدة نقلة جديدة ..
قال تعالى :
﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه قال يا بشراي هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون . وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾(٣٥)
كان يوسف في الجب ، والجب مكان ، ولكنه ليس كأي مكان ، إنه جب ماء يقع على طريق القوافل السيارة من القوم .. فالمكان هنا مختار من بين الأماكن كلها وكأنما كان اتفاق إخوة يوسف على جريمتهم منفذاً لفتح عهد جديد وقام المكان بتحقيق ذلك ، ويركز الموقف هنا تركيزاً دقيقاً على حركتين حركة أدلاء الدلو .. وحركة الصرخة المتعجبة .. وسكتت الآيات عن وصف يوسف في الجب ، وعن وصف مشاعره وهو ينجو من ظلماته ، كما سكتت تماما عن القوم السيارة ..
وهذا الانتقاء والسكوت من الأسس الفنية في العرض القصصي لأنه يعتبر اهمالا لكل مايخرج عن محور الحدث «فكل هؤلاء الأشخاص الذين التقطوا يوسف وباعوه نكرات مسرحية ولذلك لم

---

(٣٤) يوسف ٧٧ .
(٣٥) يوسف ١٩ ــ ٢٠ .

تهتم القصة بذكر شأنهم .. لقد كان دورهم أن يصلوا بيوسف إلى مصر وقد فعلوا .. إنهم أداة الحدث»[٣٦]

ولقد جاء التعبير بقوله : «وكانوا فيه من الزاهدين» ليكشف عن طبيعة الناس الذين عثروا على يوسف .. فهو لا يهمهم في شيء .. ومن ثم باعوه بخساً .. وهذه الصفة قامت بدور الجب ـــ المكان ـــ فالزهد ـــ الصفة ، باعث قوي على مداومة الفعل ، وتواصل الحدث .

ويمتد الحدث ويتواصل والقرآن يسرد القصة ، لكنه ينتقل فجأة نقلة زمانية طويلة ، على حين سكت القرآن عن فترة الصبا واليفاعة في عمر يوسف ، وكيف كانت نشأته وتربيته .. ويقف بنا الحدث الجلل عند منحى خطير وهو حدث المراودة ـــ

.. فلقد اشتراه العزيز وشب في بيته ، ولقد كان فعل الشراء مرتبطاً بالمراودة .. ذلك أن الفتى تربى على يد المرأة ، ورأت فيه يوما بعد يوم جمال الحسن وجمال الخلق بهرها الجمال ، وسيطر عليها الهوى وضعفت ولم تحكم مشاعرها .. ومن ثم كان الحدث القصصي من نهاية العشق ، العشق الذي ترسب في النفس على مدى زمن النمو ، إن نهاية العشق هو الإسفار في المراودة وطلب الفعل ..

ولا شك أن عرض القرآن لفعل المراودة جاء نظيفاً غاية النظافة ، متلائماً مع منهج القرآن في عرض العواطف البشرية . ذلك المنهج الذي لا يهمل خلجة بشرية واحدة وفي الوقت ذاته لا يخرج بها إلى مايخدش الفطرة السوية .

(لقد ألمت القصة بألوان من الضعف البشري بما فيها لحظة الضعف الجنسي ودون أن تزور في تصوير النفس البشرية بواقعيتها

---

(٣٦) السرد القصصي في القرآن ثروت أباظه ص٢٣ .

الكاملة في هذه المواقف)[37]

ومع صدق التعبير عن هذا النموذج البشري الخاص وعن هذه اللحظة الخاصة .

(فإن الأداء القرآني لم يتخل عن طابعه النظيف مرة واحدة حتى وهو يصدر لحظة التعري النفسي والجسدي الكامل بكل اندفاعها وحيوانيتها)[38]

ولنأخذ حركة الفعل في الحدث والمصحوب بالمفاجأة وكيد المرأة في تصرفها ..

قال تعالى :

﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب ، قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم . قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قدّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قدّ من دبر قال إنه من كيدكن ، إنّ كيدكن عظيم﴾[39]

هذا هو نهاية موقف الاغراء الطويل .. وقد صور السياق القرآني هذا الموقف بكل ملابساته وانفعالاته دون أن يجعله معرضاً للاثارة أو التلذذ الشبقي . وصياغة الموقف السردي تكشف عن تتابعات في الحركة فالاستباق يقتضي حركة لايقافه . والحركة أحدثت تمزيقاً لثوب يوسف من الخلف . وكان هذا التمزيق بمثابة التمهيد لجو الحدث وشهادة الشاهد .. لانقاذ يوسف من المفاجأة التي تترصده بجوار

---

(٣٧) الظلال مجلد ٤ ص١٩٥٢ .

(٣٨) نفسه ص١٩٥٤ .

(٣٩) يوسف ٢٥ ــ ٢٨ .

الباب . فالمفاجأة أحدثت رد فعلها في تغيير الموقف وتبديله وإظهار طبيعة الانثى في أدعاء العفاف واسقاط مشاعرها على الآخرين . ومن ثم ألقت «التهمة جميعها على يوسف في سرعة خاطفة»(٤٠) دون أن يرد في السياق ما يوحي بتفكيرها ، إنما هي طبيعة الأنثى في مواقفها المأزومة .

ويتصل بهذا الموقف ويمتد ما أشاعة نسوة المدينة حول امرأة العزيز في مراودتها لفتاها .. فالحركة النفسية في الأنثى واحدة والموقف موصول ليكشف طبيعة المرأة الأنثى لحظة اجتياح الهوى لمشاعرها ووجدانها ، وحين تجمع امرأة العزيز النسوة في موقف الطعام والسمر ، يكشف الموقف من سر ظل طوال القصة خافيا ، حتى في اللحظة التي يستلزم وجوده فيها ــ لحظة المراودة ، هذا السر هو الكشف عن جمال يوسف .. تلك النهاية التي تبرر فعلة المرأة في البداية .. ولكن كشف الجمال جاء عبر حركة مأخوذة ومرصودة بفعل النسوة المندهشات من جمال مصفى .

قال تعالى :

﴿.. فلمَّا رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن ، وقلن حاشى لله ما هذا بشرا . إن هذا إلا ملك كريم ..﴾

ولقد قدمت الآية الكريمة هذه الحقيقة في حركة تصويرية أخاذة ، تشي بالدليل القاطع على الجمال المصفى الذي اتسم به يوسف .. فها هي السكاكين في ذهول النسوة من الجمال تمشي بإرادة مذهولة لتقطع الأكف بدلا من قطع الفاكهة .

.. ومن ثم وردت العبارة القرآنية **﴿حاشى لله ما هذا بشراً﴾**

---

(٤٠) السرد القصصي في القرضان ص٢٧ .

لتكشف عن طبع الفطرة المؤمنة في حالة الركون إلى الفطرة نفسها .. والتعبير تنزيه لله وإفضاء تصويري مندهش لروعة خلق الله .

ويرتبط بهذا المحور الحدثي في قصة يوسف مشهد آخر يكمل هذا الموقف الطويل .. وهو المشهد الذي يوضح رغبة الملك في رؤية يوسف هذا العليم بتأويل الأحاديث ، ويتضمن المشهد كله براءة يوسف مما ادعته عليه زوجة العزيز من تهم .

قال تعالى :

﴿وقال الملك ائتوني به ، فلمّا جاءه الرسول قال ارجع إلى ربِّك فاسأله مابال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ، إن ربّي بكيدهن عليم . قال ما خطبكنَّ إذ راودتن يوسف عن نفسه ، قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحقُّ أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين . ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأنَّ الله لا يهدي كيد الخائنين . وما أبرىء نفسي إنَّ النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إنَّ ربّي غفور رحيم﴾[٤١]

فيوسف في هذا المشهد المكمل لحركة المراودة ـــ السبب في سجنه ـــ لا يتعجل الخروج .. فهو ليس بشراً عادياً يتلهف هذه اللحظة ، ولكنه يريد أن تتضح قصته التي من أجلها دخل السجن ، كيف يسجن ، ثم يؤول الأحاديث بهذا الصفاء القلبي وتظل التهمة عالقة !!

إنه لا يريد لمتناقض واحد أن يشوه صورته الحقة . فلقد أدّبه ربه فأحسن تأديبه ، ولقد سكبت هذه التربية في القلب سكينة وأمناً .. ومن ثم يجيء الرد اطمئناناً كاملا ، فليبحث الملك أولا عن النسوة اللاتي قطعن أيديهن وليعرف منهن حقيقة ما حدث !!

---

(٤١) يوسف ٥٠ ـــ ٥٣ .

وفي هذا الموقف تتقدم امرأة العزيز .. فلا مفر من قول الحق ، في هذا المشهد وعلى الملأ ، وأمام الملك ، تعلن بأنها هي التي راودته ، واعترفت في اسلوب يشي بانفعال ، وبصدق ، وبإيجاز ، وبإيحاء قوي مؤكد بصدق يوسف **﴿أنا راودته عن نفسه ، وإنه لمن الصادقين﴾** .. وانظر إلى تكرار الضمائر الذي يؤكد المعنى ويشمل صاحبه ويلصق به ، وانظر إلى تكرار المؤكدات التي في العبارة ، لتزيل تماماً من النفس أية شبهة تلحق بيوسف ..

وانظر الاضافة التعبيرية التي تكشف عن تغيرات أصابت المرأة حيث توحي بإيمان كامن في القلب **﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب﴾** ... إنها الآن تحرص على أن تمحي من نظره صورة الأنثى الجامحة بالعاطفة ، وتريد أن يبقى على احترام لها «وليعلم يوسف أني لم أخنه في حال الغيبة وجئت بالصحيح فيما سئلت عنه»[٤٢] فالمرأة أحبت وأكبرت الرجل المؤمن الذي أحبته فهي لا تملك إلا أن تظل معلقة بكلمة منه وإنها لتأمل العفو (.. إن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحم ربي ..) .

(وهكذا يتجلى العنصر الانساني في القصة التي لم تسق لمجرد الفن وإنما سيقت للعبرة والعظة ، وسيقت لتعالج قضية العقيدة والدعوة . ويرسم التعبير الفني فيها خفقان المشاعر وانتفاضات الوجدان رسماً رشيقاً شفيفاً ، في واقعة كاملة تتناسق فيها جميع الواقعيات في مثل هذه النفوس في ظل بيئتها ومؤثرات هذه البيئة)[٤٣]

... إن شخصية يوسف قد استقامت منذ النشأة ومروراً بالأحداث

---

(٤٢) الكشاف جـ٢ ٢٦٢ ويرى المؤلف أن الكلام ليوسف عليه السلام «ليعلم العزيز أني لم أخنه بظهر الغيب في حرمته — ص(٢٦) .

(٤٣) الظلال مجلد (٤) ص١٩٩٦ .

التي مرت به والمحن التي ووجه بها ، ولكنه مصطفى ، ومصنوع على عين الله ، ومن ثم كانت التربية الربانية التي رعته حتى مكنت له في الأرض بعد أن خرج من سجنه وثبتت براءته ، وأيقن الجميع أنه نبي صادق الوعد عالم بتأويل الحديث وأنه الصالح القادر على أن يقوم بتدبير أمور الحياة المعيشية والقابض بعون الله على مقاليدها ..

وهنا يتجه الحدث المسرود اتجاهاً آخر ، يركز فيه على النعم التي أنعم الله بها على يوسف بعد المحن الطوال التي صبر فيها وتجلد ولم ينس ربَّه فيها لحظة من الزمان ..

.. ولعل محنة السجن ظلماً كانت من المحن الشداد .. ومن ثم كان اتجاه الحدث المسرود نحو التمكين فرصة ربانية هيأها الله ليوسف .. تعويضاً عن محنة السجن والمحن الأخرى .

ويصور الحدث فعل الملك حين علم حقيقة الأمر .

قال تعالى :

﴿وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسي .. فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾(٤٤)

لم يدع يوسف الفرصة تمر دون أن يحقق الهدف المرجو له . فهو الذي آتاه الله الحكمة والعلم . وهو الحصيف الفاهم للأمور كيف تجري حسب السنين المراد لها .. ومن ثم أسرع بالقول (اجعلني على خزائن الأرض) .. ولم يكن هناك وقت مناسب لاجابة هذا المطلب أفضل من هذا الوقت الذي تبدو الحاجة فيه إلى يوسف أكبر وأشد .

---

(٤٤) يوسف ٥٤ ــ ٥٦ .

.. والسرد لا يهتم برد الملك حول هذا المطلب لأنه ردّ لا كيان له في سير الأحداث وتطورها وإنما يكتفي السياق بإبرار النتيجة وهو التمكين .. والتكريم .

وينتقل السرد إلى حدث آخر فيه فجاءة الفعل غير المتوقع ، ولكنه حدث يمضي على سنن الله التي يريدها .. حديث يعود بنا من جديد إلى تجديد العلاقة واستعادتها بين يوسف واخوته ، ولكن في إطار واقعي متغاير .

إن إخوة يوسف يأتون من أجل الكيل والتبضع وهم يجهلون يوسف وينكرونه ولكنه يعرفهم ، وألقى يوسف المفاجأة ، فلقد اشترط لحصولهم على المئونة أن يأتوا بأخ لهم من أبيهم ..

قال تعالى :

﴿ولما جهزهم بجهازهم قال ائتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين . فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون﴾(٤٥)

ولا شك أن المفارقة في موقف يوسف وإخوته يدعو إلى التشويق ذلك أنه يعرف إخوته ويعرف طباعهم ، وظلال ملامحهم لم تنمح من ذاكرته أما هم فقد أنكروه وجهلوه تماما .. ومن ثم كان ردّ الفعل لمطلب يوسف أمراً مطاعاً لم يشكوا فيه ، الأمر الذي جعلهم يحتالون على أبيهم مرة أخرى بعد قطع العهود والمواثيق على أن يسمح بسفر الأخ الصغير معهم .

ولكن كيف ألقى يوسف إليهم بهذا المطلب ؟ وكيف ألقاه دون أن يثير فيهم الريبة والشك ، هذا ماسكت عنه القرآن انطلاقاً من منهج القصة القرآنية الذي يميل إلى الايجاز وتنحية التفاصيل التي

---

(٤٥) يوسف ٥٩ ــ ٦٠ .

لا تثري الحدث أو تنمو به .. فلا شك أن هنا فجوة ، كغيرها من الفجوات التي يمكن للخيال أن يتصور حدوثها طبقاً لانسياق الحدث وتداعيه ... ولا شك أن هذا المطلب جاء بعد أن آنس الأخوة من أخيهم الود الذي يعني اخباره عن الأحوال والأمور التي تخصهم ككل ــ فجاء المطلب ــ وهو يدري ــ بعد أن اخبروه بما يدري ! ويعود الأخوة إلى أبيهم يعقوب ليجادلوا معه ..

ونقف على الحدث عبر حوار يكشف عن نمط الشخصية .

قال تعالى :

﴿.. ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردَّت إليهم قالوا يا أبانا مانبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير﴾(٤٦)

إن الشخصية هنا تمور بالحياة (تلك هي الشخصية المكتملة التي لا تجد فيها اضطراباً فنياً .. أو تناقضاً في السلوك . إن الأخوة الطامعين الذين تخلصوا من يوسف حتى يخلو لهم وجه أبيهم هم أنفسهم الذين يحاولون أن يصحبوا أخاهم الثاني ليزداد لهم الكيل . فهم غير راضين عما أصابوا)(٤٧)

وتمضي الأحداث لتحقق في سردها مفاجأة كبيرة دارت حول تحقيقها الأحداث السابقة التي دارت بين الأخوة ويوسف ، والأخوة وأبيهم . فالأخوة يعودون طمعاً في المال وزيادة الميرة ، ويحتجز يوسف أخاه ، ويلجأ إلى طريقة مشروعة حيث يجعل السقاية في رحل أخيه .. ولا شك أن تلك الواقعة كان لها وقع المفاجأة .

---

(٤٦) يوسف ٦٥ .

(٤٧) السرد القصصي ص٣٥ .

قال تعالى :

﴿فلما جهَّزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾[٤٨]

إنها مفاجأة قصصية ، غيرت مسار الحدث تماماً ، ومهدت به إلى منحى جديد ليحفظ الحدث خليطاً جديداً يقترب من نهاية القصة ككل .

ولكن القصة لها وقعها الآخر على نفسية يعقوب .. لقد أصابه الحزن وأشتد به الألم والبكاء حتى فقد بصره ..

قال تعالى :

﴿.. وتولى عنهم وقال ياأسفي على يوسف ، وأبيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾[٤٩]

وقال تعالى :

﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون يابني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾[٥٠]

ويدعو يعقوب أبناءه أن يلتمسوا يوسف وأخاه وألا ييأسوا من روح الله .. وكلمة روح أدق دلالة وأكثر شفافية ففيها ظل الاسترواح من الكرب الخانق بما ينسم على الأرواح من روح الله الندي)[٥١]

.. وعند هذه القصة تصل القصة إلى القمة وتكتمل المأساة .. ولكنه في الحقيقة وصول فيه قدر كبير من التوازن بين حركات

---

(٤٨) يوسف ٧٠ .

(٤٩) يوسف ٨٤ .

(٥٠) يوسف ٨٦ — ٨٧ .

(٥١) الظلال مجلد ٤ ص٢٠٢٦ .

الأحداث وتتابعها .. ذلك أن هذه النقطة هي انطلاقة إلى إيجاد الحل وفك الحدث الأكبر ، إنها ستصبح لحظة التنوير التي تضيء الحدث وتكشف غوامضه ، وستره المحجوب .

ويسرع الحدث إلى حدة المواجهة والتعرف ، وفك الغموض .

فيدخل إخوة يوسف مصر مرة أخرى طلباً للقوت بعد مجاعة طالت ، وفي ضميرهم أن يستفسروا عما طلبه الأب منهم . وهم قد بدوا في ذلة لرداءة بضاعتهم ..

وفي ثنايا التعبير تتجلى معاني الاسترحام من الأخوة فضلا عن الضيق الذي يبدو على ملامحهم ويظهر في حالاتهم وكذلك الانكسار الذي يتبدى في نبرة الذلة التي تشع من الألفاظ .

لقد كان الوصف الدقيق الموحي والمشع عن حال الأخوة هو مفتاح كشف الغموض الذي طال بالنسبة لهم ، وهو المدخل إلى ترقيق قلب يوسف . على إخوته ..

ويبدأ يوسف في الترفق بأخوته ويأخذهم بعيداً إلى الزمان الماضي ــ ليذكرهم بما فعلوه بيوسف ، وفجأة يدركون للوهلة الأولى .. أن وراء هذا الاستدعاء التاريخي هدفاً مقصوداً ، بل لقد عرفوا المقصد وصاحوا عجباً في نبرة واحدة ــ لكأنك أنت يوسف . ويتناسى الاخوة في هذه اللحظة الانفعالية ماحدث ودار .. فلقد غفر يوسف لأخوته ..

قال تعالى :

﴿فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر ، وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين . قال هل علمتم مافعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون . قالوا أإنك لأنت يوسف وهذا أخي قد من الله علينا ، إنه

من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾[٥٢] .

ويطلب يوسف أن يذهب الأخوة بقميصه إلى أبيه فيرتد بصيراً ، «وتلك مفاجأة تصنع في كثير من الحالات فعل الخارقة»[٥٣] .. إنه خارقة من نبي كريم إلى نبي كريم .. إن توالى المفاجآت يتواصل حتى تأتي القصة إلى نهايتها .. وإن توالي هذه الأحداث بالسرد المعجز إنما يؤكد على معنى هام وهو «إن هذه القوة الخفية في كيان الوجود إنما تحركها إرادة حكيمة مبدعة حسب نواميس خاصة وكل خطوة مقدرة بحساب»[٥٤] .

وما أروع أن تتابع الأحداث بهذا القدر السردي المنسجم مع تفاوت في درجة البسط والايجاز ، والتنقل بين حالة وأخرى ، والقفز فوق فجوات لا تضفي جديداً لجوهر الحدث ونموه ، وبناء الشخصية وتحولها ــ في إطار زمني متواصل ومتكامل . وهي في كل حالة إنما تصف الحيّ من الأحداث . حتى إننا نستطيع أن نقول عن قصة يوسف إنها حكاية الحدث المتتابع والمتنامي في جزئياته وكلّياته .

إن «رواية الحدث تهتم بوصف الأحداث الحية ، ويمكن أن يكون للحادثة الصغيرة نتائج كبيرة حتى تتفرع وتتشابك ليأتي الحل بما فيه من عناصر المفاجأة أو الاثارة ، والحدث هو العنصر الرئيسي الذي يدفع الشخصيات إلى أعمال تساعد على تعقيد خيوطه وقدرتها تبدو في الاستجابة لمعطياته»[٥٥]

.. ولقد وقعت المفاجأة ، إنها حدث صغير بالقياس للأحداث

---

(٥٢) يوسف ٨٨ ــ ٩٠ .

(٥٣) الظلال مجلد ٤ ص٢٠٢٧ ــ

(٥٤) سيكلوجية القصة ص٣٥٤ .

(٥٥) بناء الرواية د. عبدالفتاح عثمان ص١٢٣ .

الكبرى في القصة ولكنه حدث أفرز نتائج هامة حيث أسرع بالنهاية وفك الرمز الكبير في القصة .. رمز الرؤيا التي وردت في بداية السورة القرآنية الكريمة ..

وبعد أن عاد البصر إلى يعقوب الأب آن للجميع أن يمضوا إلى يوسف في مصر ..

قال تعالى :

﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين . ورفع أبويه على العرش وخروا له سجّداً ، وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ، وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إنّ ربِّي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾[٥٦]

إننا أمام مشهد حافل بالانفعال والخفقات والدموع ، مشهد تحقق بعد يأس طال وألم نفس امتد ، وبعد امتحان تنوع وشوق أضنى القلوب .

ولكنه موقف النهاية الذي يرتبط بمطلع القصة ، إن القصة هنا تستدير فتعود نهايتها إلى أولها ، وتفسر النهاية البداية ، بحيث يصبح البدء والمنتهى وحدة واحدة مضفورة بحدث نام ممتد ..

لقد كانت البداية في ضمير الغيب . وأصبحت النهاية واقعاً حقاً ..

فلقد سجد الأب والأم والأخوة الأحد عشر ليوسف ، وانفك الغموض وكانت النهاية وخاتمة القصة ..

---

(٥٦) يوسف ٩٩ ــ ١٠٠ .

والملاحظ أن قصة يوسف كما قلنا جاءت دفعة واحدة على غير القاعدة القصصية في القرآن ذلك لأن طبيعتها تستلزم هذا اللون من الأداء «فهي رؤيا تتحقق رويداً رويداً ، ويوما بعد يوم ومرحلة بعد مرحلة فلا تتم العبرة بها ـــ كما لا يتم التنسيق الفني فيها ـــ إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها حتى نهايتها . وإفراد حلقة واحدة منها في موضع لا يحقق شيئاً من هذا كله .(٥٧)

ومما يميز به السرد القصصي في قصة يوسف أنه سرد أفقي يبدأ من أول الحدث إلى نهايته مروراً بأحداث متتابعة تشغل جسم القصة بين البداية والنهاية ..

ولا شك أن كل حدث جزئي له وظيفته في جسم الحدث الأكبر ، بل هو يعتبر وحدة وظيفية تقوم بدورها في نمو خيوط الأحداث وتعقدها وانفراجها . «فالوحدة الوظيفية هي الوحدة القياسية التي نرد إليها أفعال البطل في مراحل رحلته الزمانية . وتنتظم الوحدات الوظيفية في أفعال متتالية وكلما تقدمنا في العمل تكبر الوحدات المعبرة عن هذه الوظيفة»(٥٨)

والقرآن وهو يسرد قصصه إنما ينوع أحداثه ما بين واقعية أو خارقة غير مألوفة وما بين قضاء وقدر أو معجزات تتجلى .. وهي في كل الحالات التي تسرد فيها تسير وفق ترتيب خاص بحيث يكون كل حدث في مكانه وفي وقته المناسب وينمو حسب ميزان دقيق يحدد حركة انطلاق الحدث سرعة وبطئاً .

ويحسن في هذا المقام أن نذكر ماقاله أحد الباحثين حول هذه السورة القرآنية الكريمة . وحول صاحب قصتها ومحورها .. إذ يرى

---

(٥٧) الظلال مجلد (٤) ص٢٠٣٧ .

(٥٨) نقد الرواية . د. نبيلة ابراهيم .

الباحث أن قصة يوسف «من حيث البناء القصصي أجود قصة في القرآن ولعله من أجل هذا عدّها القرآن من أحسن القصص ..»(٥٩)

ووصف القصة بأنها من أجود تعبير يتنافى مع كمال القرآن ، فالقرآن ليس فيه قصة جيدة وأخرى غير جيدة ، فكله كلام الله موحى به إلى نبيه محمد ﷺ . والقصة تمثل مساحة واضحة في القرآن الكريم ، وهي تقوم بدورها في ترسيخ العقيدة ، وإعطاء العظة والعبرة بضرب المثل وبذكر الأقوام السابقين ومواقفهم من الرسل وما حاق بهم ، كإشارة موجهة إلى مشركي مكة الذين يصدون عن الدعوة ويؤذون الرسول والمؤمنين ، كما أن فيها الوعد بالنصر للرسول وللمسلمين كما نصر أولو العزم من الرسل السابقين .. فضلا عن الإيناس للرسول وتسرية عما فيه وتدعيم للموقف ودعوة إلى الصبر .

فعبارة الباحث جاوزت الصواب .. ذلك أن قصة يوسف جاءت على غير المنهج القصصي للقرآن وليس معنى هذا أنها أجوده .. فالقرآن كلام الله .. لا تعلوا فيه سورة على أخرى ولا تفضل آية آية أخرى . وإنما الأمر أن قصة يوسف جاءت دفعة واحدة ، مكتملة البناء والحلقات منذ البداية إلى النهاية ، فهي لا تحتاج إلى إعادة حلقاتها أو تكرارها ـــ فتوالي الأحداث يتواصل منذ الرؤية التي تتحقق شيئاً فشيئاً ، والتنسيق الفني لا يتم إلا بأن يتابع السياق خطوات القصة ومراحلها .. فضلا عن أن إفراد حلقة من حلقاتها كما يحدث في قصص الأنبياء الآخرين لا يحقق شيئاً من هذا التنسيق ومن هذا الاكتمال .. من هنا كان لقصة يوسف هذه الميزة البنائية .. ولكن ذلك لا يعني أن توصف بماقاله الباحث لأن ذلك يعتبر تزيداً في القول وخروجاً به إلى ما لا يليق موضوعاً وفنا .

---

(٥٩) الفن القصصي في القرآن . د. محمد أحمد خلف الله ص٢٥٢ .

وإذا كانت شخصية يوسف هي الشخصية المحورية في القصة وأنها لب الأحداث وجوهرها ، وان الأحداث جرت وفق سنن الله سبحانه إلا ان للباحث رأياً يراه في أحداث القصة وشخصيتها المحورية يقول : «والأحداث في هذه الشخصية أحداث عادية تقع لكل شخص وفي كل زمان ومكان ، فليس يبعد أن يرحل اسرائيلي من بلد إلى آخر وهو فقير معدم فتصير إليه مقاليد بيت المال ، وليس يبعد أن تقع هذه الأحداث لشخص فيكون موقفه منها موقف يوسف ، حتى حادث المراودة ، ولا تستغرب إلا حالة إلقاء القميص على وجه أبيه وارتداده بصيراً فتلك قد تكون من خصائص الأنبياء ..»[٦٠]

والباحث لا يلتفت إلى نصوص القرآن الواضحة الالتفات الواجب ، فيوسف ليس كأي فرد ، وإنما هو نبي مصطفى مصنوع على عين الله مكلوء برعايته ، ثم إنه لم يذهب إلى مصر بغية التجارة والبحث عن العمل ، وهو لم يصل إلى مكانته وسلطته نتيجة نهضة اقتصادية يهودية .. وإنما كان يوسف ضحية غيرة إخوته لأبيه[٦١] ومرت به الأحداث حتى صار عزيز مصر وأمينا على خزائنها .. تلك أحداث قصها القرآن .. والأحداث هذه .. حين توصف بكونها عادية تقع لأى فرد كان في أي زمان ومكان .. ينفي في معناه أن الأحداث تسير وفق سنن الله في الأرض والعباد ، كما تنفي رعاية الله وعنايته ليوسف النبي المصطفى في كل حدث مرّ به .. فكيف نفسر الرؤية ونحققها .. وهي محور الحدث الأول ؟ وكيف نفسر السقوط في الجب دون سواه من الآبار !

---

(٦٠) الفن القصصي في القرآن ص٢٥٨ .
(٦١) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ٣ أحمد محمد جمال ص٢١١ .

وبم نفسر الخروج منه ! انفسره بالصدفة البحتة ! الصدفة التي جعلت الأخوة يحقدون عليه ! والسيارة ينتشلونه من الجب لمرورهم عليه بحثاً عن الماء ! ولماذا هذا الجب بالذات ؟ أليس ذلك بتوجيه إلهي مرسوم من أجل اكتمال خيط الأحداث وتتابعه ؟ ثم كيف نفسر تأويل الأحداث وصدق تأويلها ؟ وبم نفسر إبصار يعقوب النبي بإلقاء قميص يوسف الذي تنبعث منه رائحته ! أهو مثير شرطي يحدث الهزة في النفس ؟ وهل في مكنة الانسان العادي أن يقوم بهذا العمل لابراء المريض ؟ أليس هذا ماكان يفعله عيسى عليه السلام بإرادة الله ؟

.. ومن ثم فإن التعبير بقوله عن ارتداد البصر بأنه قد يكون من خصائص الأنبياء .. التعبير يوحي بالتهوين من هذا الأمر . وهذا لا يليق بمكانة الأنبياء . ولا باستقراء النص القرآني . ثم بم نعلل هذا الترتيب التتابعي في انسجام فني تام وبتوقيت زمني محسوب ؟ فإن لم يكن ذلك كله وفق سنن كونية ورعاية خاصة .. فبم تكون ؟

المراجـع

١ ــ القرآن الكريم .
٢ ــ تفصيل آيات القرآن الكريم . نقل محمد فؤاد عبدالباقي .
٣ ــ الكشاف . الزمخشرى .
٤ ــ صفوة التفاسير . محمد على الصابوني .
٥ ــ في ظلال القرآن ــ سيد قطب .
٦ ــ صحيح البخاري ــ الامام البخاري .
٧ ــ جمع الفوائد ــ جمع : محمد بن محمد بن سليمان الروداني .
٨ ــ قصص الأنبياء ــ ابن كثير .
٩ ــ قصص القرآن ــ محمد أحمد جاد المولى .
١٠ــ التصوير الفني في القرآن ــ سيد قطب .
١١ــ مشاهد القيامة في القرآن ــ سيد قطب .
١٢ــ خصائص التصور الاسلامي ــ سيد قطب .
١٣ــ مع القرآن الكريم . دراسة مستلهمة ــ على النجدي ناصف .
١٤ــ القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ٢ ــ أحمد محمد جمال .
١٥ــ القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ٣ ــ أحمد محمد جمال .
١٦ــ القصص الرمزي في القرآن ــ أحمد محمد جمال .
١٧ــ منهج الفن الاسلامي ــ محمد قطب .
١٨ــ القرآن المعجزة الكبرى ــ محمد أبوزهرة .
١٩ــ التبيان في علوم القرآن ــ محمد على الصابوني .
٢٠ــ التعبير الفني في القرآن ــ د. بكري شيخ أمين .
٢١ــ سيكلوجية القصة في القرآن ــ د. التهامي نقرة .
٢٢ــ قصص وعبر ــ محمد المجذوب .
٢٣ــ القصص في الحديث النبوي ــ محمد بن حسن الحرير .
٢٤ــ الاسلام والمذاهب الحديثة ــ فتحي رضوان .
٢٥ــ القصة القرآنية ــ فتحي رضوان .
٢٦ــ السرد القصصي في القرآن ــ ثروت أباظة .

٢٧ـ المعاني الثانية في الأسلوب القرآني ـ د. فتحي عامر .
٢٨ـ دراسات نفسية وتأملات قرآنية ـ د. عزت الطويل .
٢٩ـ الانسان في القرآن الكريم ـ عبدالكريم الخطيب .
٣٠ـ علم النفس ـ د. جميل صليبا .
٣١ـ الصورة الأدبية ـ د. مصطفى سويف .
٣٢ـ المذاهب الأدبية ـ د. نبيل راغب .
٣٣ـ نظرات في قصص القرآن ـ محمد قطب عبدالعال .
٣٤ـ مجلة (منبر الاسلام) ـ مايو ١٩٨٦ .
٣٥ـ الفن القصصي في القرآن الكريم ـ محمد أحمد خلف الله ط١ .
٣٦ـ معلمة الاسلام ـ أنور الجندي .
٣٧ـ منهج التربية الاسلامية ـ محمد قطب .
٣٨ـ القصة في التربية ـ عبدالعزيز عبدالمجيد .
٣٩ـ بناء الرواية ـ عبدالفتاح عثمان .
٤٠ـ نقد الرواية ـ نبيلة ابراهيم .
٤١ـ القصة القصيرة نظريا وتطبيقياً ـ يوسف الشاروني .
٤٢ـ قصص القرآن الكريم في منطوقه ومفهومه ـ عبدالكريم الخطيب .
٤٣ـ أركان القصة ـ فورستر .

محتويات الكتاب

الموضوعات | الصفحة